الأعمال الكاملة

٩

صلة الإسلام بإصلاح المسيحية



الأعمال الكاملة

الجزء التاسع

صلة الإسلام بإصلاح المسيحية

أمين الخولى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٣

صلة الاسلام باصلاح المسيحية

بحث قدم وألقيت خلاصـــته

في مؤتمر تاريخ الأديان الدولي السادس المنعقد بمدينة بروكسل

من ١٦ الى ٢٠ سبتمبر ١٩٣٥

الاخراج الفنى والغلاف : عمر حماد على



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة (١)

من قلم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر

فى سنة ١٣٥٤ هـ ـ ١٩٣٥ م دعى الأزهر لحضور مؤتمر تاريخ الأديان الدولى السادس المنعقد بمدينة بروكسل ، فى شهر سبتمبر من تلك السنة ، فلبى الدعوة وأوفد حضرتى صاحبى الفضيلة ، الأستاذين مصطفى عبد الرازق ، وأمين الخولى ، وقد اختار الأستاذ الخولى موضوعا لبحثه «حادث الاصلاح البروتستانتى فى المسيحية» فكتب فيه هذه الرسالة ، بحثا عن الصلة بين هذا الحادث وبين الدين الاسلامى والعلوم الاسلامية •

موضوع طريف ، وبكر ـ فيما أظن ـ ويبدو كأنه غريب • لكن الأستاذ الخولى بما منح من رجاحة العقل ، ودقه البحث ، وسعة الاطلاع ، استطاع أن يزيل هذه الغرابة ، وأن يمهد الطريق للوصول الى رأى صائب فى الموضوع •

---

(١) ألف الناس من هذه المقدمات ما هو التقريظ أو ما يشبهه ، لكنما أراد الله أن تكون هذه المقدمة مثلا من حرية الفكر ، ونزاهة النظر الدينى فى مناقشة مولانا الأستاذ الأكبر ، لنتائج هذا البحث ، بما تركته بين يدى القارىء دون تعليق ـ المؤلف •

وحركة الاصلاح المسيحي حادث من الحوادث البارزة في تاريخ الأديان ، وما من حادث في هذا الوجود ، الا وهو أثر لغيره ومؤثر في غيره ، والحوادث العظيمة ترتبط عادة بأسباب كثيرة سابقة ، وقد يكون السبق بزمن طويل ، ثم من الأسباب ما يكون واضحا ، ومنها ما يكون خفيا حتى لا يدرك الا بعد العناء ، أو بعد سفر من الخاطر طويل .

وقد شاء الأستاذ الخولى أن يرى صلة حركة الاصلاح البروتستانتى بأصول الاسلام ، وعلوم الاسلام ، ونظم بحثه على ثلاثة فصول :

الأول : في اثبات الاتصال المادى بين الاسلام والمسيحية في أوربا .

الثاني : في اثبات الاتصال المعنوى بين الاسلام والمسيحية في أوربا .

الثالث : في آثار ذلك الاتصال .

★★★

وقد أثبت الاتصال المادى والمعنوى ، بما أرى أن فيه غناء للمتصف . فالحروب بين الاسلام والمسيحية في الشرق والغرب ، وتبادل الأسرى ، والفتح وبسط رواق الحكم والسلطان الاسلامى في الغرب، وغزو الفرنجة بلاد المسلمين، واختلاط الجند في الشرق والغرب ، واستعانة المسلمين بغيرهم في مرافق الدولة وأعمال الحكومة ، واستعانة غيرهم بهم في ذلك ، والوفود التي تفد من الجانبين للصلح وتقرير العلاقات ، أو لرود البلاد ، والانتقاع بما فيها من مناخ وموارد ، وتبادل التجارات ، كل ذلك لا يدع مجالا للشك في هذا الاتصال المادى وقوته .

ثم مرور حقبة طويلة من الزمان ، كان الغرب فيها غارقا في الأمية والجهالة ، وحركة نقل المعارف الاسلامية وترجمتها ، وترجمة القرآن الكريم نفسه ، وتعلم اللغة العربية ، واللغة العبرية لأنهما لغتا العلم ، والواسطة

لدراسة العلوم الاسلامية وعناية الملوك والأمراء ، ورجال الدين بهذه الحركة والتأثر بأعلام العلماء الاسلاميين ، كابن سينا ، والغـزالى ، وابن رشـد • كل ذلك ثابت ، وقد أتى الأستاذ بالشواهد عليه ، وبالأسانيد التى لا تقبل الجدل ، وهو برهان الصلة المعنوية بين الغرب وبين الاسلام ، ومن الحق أن يقول الأستاذ بعد استيفاء هذا كله (•• من كـل هذا يتجلى للقارىء التأثير الاسلامى الذى أوضحنا قوته فى أوربا بعامة ، وأنه كان بخاصة فى البيئة الجرمانية ـ الميدان الأخير للاصلاح ـ واضحا قويا) •

ومن الواقع أن حادث ظهور الاسلام وانتشاره بالسرعة الفائقة التى انتشر بها فى الشرق والغرب ، وخلافته عـلى دول عريقة فى المدنية والأدب ، قوية السلطان ، واقتران ذلك بالقوة المادية ، وسلطان الحكم ، والاستيلاء على البلاد التى جاءها ، وحصول ذلك على أيدى رجال لم يعرفوا من قبل بعلم ومدنية ، ولم يعرفوا بنظام حربى دقيق ، من شأنه أن يحمل المغلوبين وغير المغلوبين على التفـكير فى الروح التى وصلت بهؤلاء الى ذلك المجد الحربى ، والمجد الروحى والى ذلك السلطان القاهر، وفى الأسباب التى أثارت هذه الروح، وفى معرفة ما جاء به القرآن الكريم ، وما جاء به من نزل عليه القرآن الكريم ، ومعرفة ما تخلقوا به ، وما اتخذوه نظاما لهم فى حياتهم العامة • والخاصة ، أضف الى ذلك أن المسلمين لم يكتفوا بالقوة المادية ، وقوة الوحى ، بل سـعوا الى المعرفة يتلمسونهـا فى كل ناحيـة من الأرض ، وقام خلفاؤهم على حياطة الحركة العلمية وشاركوا فيها ، واشترك فيها من تسلل من البيوت العريقة فى المجـد ، ومن كان من الموالى وأشباه الموالى ، ثم ما اتصف به الخلفاء الراشدون ، وأكثر الولاة فى عهدهم واتصف به غيرهم ممن بعـدهم • مما حبب الى الناس أرضهم وبلادهم ، وحبب اليهم حـكمهم والاستظلال برايتهم • وعلى ذلك يمكن القول مع الاطمئنان بأن هذا الاتصال أثر أثره ، وعمل عمله دون اقامة الشواهد

والأدلة ، فان هذا طبيعى يدركه كل من راقب سير الوجود، وسير العلم فى هذا الكون .

وقد كانت اليابان أمة لا يأبه لها الغرب ولا يعدها فى مصاف الدول المتمدينة ، حتى جاء حادث الحرب بينها وبين الروسيا سنة ١٩٠٤ ، وكان لها الغلب فتغيرت موازين الأمور ، وتغير قدرها ، ونظر اليها الغرب نظره الى أمة عريقة فى المجد ، وعاملها المعاملة التى يستحقها مجدها الحربى والعلمى .

لكن ربط حركة الاصلاح المسيحى خاصة ، بالدين الاسلامى ، والمعارف الاسلامية : من فلسفة وتصوف وما الى ذلك يتطلب بلا شبهة اقامة الشواهد ونصب الأدلة ، وهذا ما حاوله الأستاذ الخولى فى رسالته .

ويجدر بنا أن نشير هنا الى جملة حكيمة قالها الأستاذ فى الرسالة وهى : أننا « حين نفسر هذا الاتصال وذلك التأثر ، لا نزعم أنه هو وحده الذى خلق حركة الاصلاح المسيحى ، وأنه سببها الأول والأخير ، بل نقدر ما هنالك من أسباب وعوامل اجتماعية ، ودينية ، وغيرها قد عملت عملها ، وتركت أثرها ، ودفعت الحياة الى ذلك الاتجاه ، فلفتتها الى الناحية العقلية والدينية ، التى قربها لها وقدمها بين يديها ذلك الاتصال بالشرق الاسلامى ، فمقصدنا العلمى انما هو القاء الضوء الكافى على الجانب التاريخى من اتصال الدينين المسيحى والاسلامى ببيان هذا الاتصال وأثره » .

فهذه الكلمة الصادرة عن نزاهة فى البحث، وعن اعتدال فى تقدير الأشياء تدفع ما قد يظن أنه يوجه الى البحث من نقد ، فالأستاذ لا يدعى أن الاصلاح المسيحى ثمرة مباشرة للمعارف الاسلامية ، تفردت تلك المعارف بايجادها ولولاها لما وجد الاصلاح بل يصرح بأن الاصلاح كان نتيجة لعوامل كثيرة اجتماعية ودينية وغيرها ، وغاية الأمر أن المعارف الاسلامية كانت تحمل العناصر التى يمكن أن تصاغ

منها أمنية المصلحين ، وأنها جذبت الأبصـار اليهـا ووجهت العقول نحوها ، وخلقت مزاجا أعانهم على ما اختاروه ٠

ومثل هذا حاصل الآن عندنا ، فان اتصالنا الحديث بالغرب اتصالا ماديا ومعنويا ، ونقل آثاره العلمية الى لغتنا، ومعرفتنا بلسانه ، ثم تفوقه الحربي والعلمي ونفوذه المنبسط على الشرق ، كل أولئك قد بعث في الشرق روحا جديدة تغاير الروح التى كانت سائدة في القرن الماضى ، بل غير العادات والتقاليد ، ومناهج التفكير ٠ ومن المتعلمين من مرق من الدين ، ومنهم من حاول التوفيق بين الدين والعلم الجديد ، ومنهم من نبهه البحث الجديد الى اعادة النظر في التراث القديم لاختيار ما هو أصلح منه ، ومنهم من اتجه لتحرير القديم مما زيد فيه وابتدع ٠ وليس من الواجب أن يكون المثال المنتزع من مثال آخر مطابقا له من جميع الوجوه أو من أكثرها ، بل قد يأخذ المثال بعض خصائص الأصل في المعنى والصورة ويوجد مثالا آخر يوافق مزاجه ، ويوافق عقيدته الموروثة ، ويوافق البيئة التصرف وغير ذلك ٠

وكما أن معارفنا تأثرت حديثا بمعارف الغرب ، فقد تأثرت من قبل بما أفاد المسلمون عن غيرهم من علم وفلسفة٠ والناظر في علومنا الاسلامية يلمح هذا التأثر في كل شيء : يلمحه في علم أصول الدين ، وعلم أصول الفقه ، وفي الفقه نفسه ويلمحه في التفسير ، وكتب شراح الحديث ، وفي كتب التصوف وغير ذلك ٠

★★★

نعود بعد هذا الى الفصل الثالث من فصول الرسالة ، وقد قسم الأستاذ الخولى الآثار الناجمة عن الاتصال المادى والمعنوى قسمين :

(أ) آثار عامة ٠

(ب) آثار خاصة ٠

وعد من الآثار العامة : الغض من سلطة الكنيسة ، وتحرر العقل البشرى ٠

واستدل على الأول بخمود الحماس الدينى ، أثر انتهاء الحروب الصليبية ، حتى لم يعد كافيا لتحريك القلوب ، وحتى انتهى الأمر بتحديد سلطة الكنيسة ٠

ومما لا جدال فيه ، أن هذين الأصلين عريقان فى الاسلام ، فهو دين لا يعترف لأحد كائنا من كان بسلطة دينية على أحد ، الا ما أعطى للامام من حق فى المباحات يوجبها أو يحظرها وفقا للمصلحة العامة ، والا ما أوجبه على العامة من استفتاء العلماء فيما لا علم عندهم به ٠

أما العلماء فلهم حق تفسير الكتاب وحق استثمار الأحكام منه ، ومن السنة المطهرة ، وعليهم العمل بما اعتقدوه أو ظنوه حكما لله ، لا يجوز لأحد منهم أن يقلد غيره، وأن يتنازل عما هداه اليه اجتهاده ، وكلمة الامام الشافعى فى الأخذ بتفسير الصحابى معروفة « كيف آخذ بقول من لو عاصرته لحججته » ٠

وقد أثمر العقل ثمراته التى حفلت بها الأرض فى ظلال القرآن ، وتحت راية السنة المطهرة ٠ وخلف العلماء هذا التراث الخالد الذى نعتز به وتعتز به البشرية قاطبة ٠

وقد يكون الحد من سلطة الكنيسة ، وخمود الحماس الدينى اثر الحروب الصليبية أثرا من آثار الخيبة والفشل فى هذه الأعمال الطائشة ، التى ذهبت ضحيتها آلاف من الأرواح البريئة التى دفعت الى أتون الحرب ، لكن هل يذهب هذا بآثار اتصال الغربيين بالشرق ، وما شهدوا فيه من حياة عملية وعلمية ودينية ، تخالف كل ما عهدوا ، وما صور لهم عن هذا الشرق وأهله ودينه !!

وقد يقال ان تحرر العقل البشرى أثر من آثار العقل نفسه ، فقد خلق حرا طليقا يغضبه أن يقع فى الأسر والحجر، ولما طال عليه الأمد فى قيوده لم يستطع الصبر ، فحاول

تحطيم الأغلال والقيود واستطاع بما ألقته الفلسفة أمامه من الضوء أن يفوز ببغيته ، وأن يعود الى طبيعته طليقا حرا • هذا ممكن وقريب جدا • لكن الذى قرب الفلسفة وقدمها هو الاسلام ، فهو بسبيل أن يكون له شأن فى تحرير العقل البشرى فى الغرب ، بعد استعباده العنيف ، واخلاده الى الركود •

★★★

وعد الأستاذ الخولى من الآثار الخاصة فكرا يعينها من أصول الاصلاح البروتستانتى منها :

(أ) رفض السلطة الكنسية للبابا والمجامع ، وهذه السلطة تشمل :

١ ـ مسألة الاعتراف •

٢ ـ مسألة الغفران : (وهو قائم على أن الأعمال الصالحة تدخر ليعطى منها الخاطئون) •

والاعتراف لرجل الدين حتى تصح التوبة ويمحى الذنب لا شك فى أن الاسلام ينكره اذ أساسه أن الله وحده يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات •

وبيع الغفران كذلك ينكره الاسلام ، ولا يرى أن تزر وازرة وزر أخرى • بل كل نفس بما كسبت رهينة ، وقد ساق الأستاذ فى احدى تعليقاته شواهد كثيرة مما فاض به القرآن الكريم •

هذه الأصول التى وجدت فى الاسلام جاء بها الاصلاح المسيحى ، فهل الاسلام هو الذى قدمها للمصلحين كما يقول الأستاذ الخولى ؟ أو من الممكن أن يكون سببها الرجوع الى المسيحية قبل أن تشيع فيها البدع ، وقبل أن تخلق الكنيسة رسومها التى سيطرت بها على الناس ، وحاطتها بسياج من التقديس ؟

كل هذا ممكن ، ومن المرجح فى مسألة بيع الغفران ان الاصلاح فيها كان رجوعا الى المسيحية ، واتباعا لنص الانجيل . ولكن ما الذى لفت النظر الى الرجوع لمصادر المسيحية الصحيحة ، أهو العقل وحده أو هو ما قدمه الاسلام من علم ومعرفة ؟ يستوى الأمر عندى فيه ، ومؤرخ الأديان من حقه أن يلحظ الصلة وأن تقوى عنده سببية ما قدمه الاسلام .

(ب) الاكتفاء فى النجاة بتصحيح العقيدة ، دون حاجة الى وساطة الكنيسة بين الله والناس :

وقد ربط الأستاذ الخولى هذه القاعدة بفلسفة الغزالى، ووجد فى أقلام المؤلفين الأوربيين حلقات ، تكون سلسلة ذلك الاتصال بالغزالى وفلسفته . والفكرة مرتبطة فى الوقت نفسه بالقرآن الكريم ذاته ، فهو ملىء بتقرير هذا الأصل ـ « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له كاتبون » . « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » . « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . وفى الحديث من قال لا اله الا الله دخل الجنة .

فهذا أصل من أصول الاسلام عرض العلماء لبيانه ، ومنهم الغزالى فى فلسفة النفس ، واعتبارها جوهرا مجردا مستعدا للفيض الالهى .

هذا الأصل وجد فى الاصلاح المسيحى ، والعقل يرشد اليه . لذلك يصح التساؤل أهو مأخوذ عن الاسلام ؟ أو عن هدى العقل ، وهدى المسيحية الأولى ؟ ومن الممكن أن يستمر الاستاذ الخولى على رأيه فى أن الاسلام هو الذى أعان عليه بما قدمه للعقل من علم ومعرفة ، ومعه مؤرخو الفلسفة الذين يتتبعون الصلة من الغزالى الى لوثر نفسه .

(جـ) اعتبار كلمة الله هي الضابط الوحيد ، وبعبارة أخرى جعل الحكم لله وحده :

وقد اتفق المسلمون على أنه لا حاكم الا الله ، حتى الذين قالوا بحكم العقل قالوا انه يدرك حكم الله ، ولا ينشىء حكما فالله وحده صاحب السلطان • واتفقوا على أن ما جاء فيه وحي فمرده الى الوحي •

وفي التنزيل الكريم « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب » ـ « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » ـ « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » •

فوجوب اتباع الوحي لا يختلف فيه أحد من العلماء ، قديمهم وحديثهم في ذلك سواء • وانما الخلاف في أمور أقل شانا من هذا ، مثل أن القياس حجة لأن النصوص لم تشتمل على حكم جميع الأشياء ، أو غير حجة لأن النصوص تشتمل جميع الاشياء • ومثل جواز تأويل ظاهر النصوص وعدم جوازه • وليس الظاهرية وحدهم هم المشددون في اتباع النصوص ، وعدم التأويل ، بل لهم أسلاف في ذلك من العلماء فليس مذهبهم جديدا •

هذا الأصل من أصول الاسلام بلا شبهة ، قد وجد في الاصلاح المسيحي البروتستانتي ، وقبل الاصلاح بزمن مبكر • واذا نحن أمعنا النظر نستطيع ادعاء أن كل من يعترف بالله ورسله ولم تفسد فطرته ، او تحجب بأغشية الضلال ، يدرك بداهة أن شؤون الآخرة ، وطريق الوصول اليها مما يجب أن تكون الكلمة فيه للوحي ، وقد كانت الاديان قبل طروء الفساد عليها على هذا المبدأ • فالرجوع اليه قد يدون رجوعا الى المسيحية ، أو رجوعا الى مقتضى العقل • لكننا نرجع فنقول أن الاسلام قدم المعرفة ، وقدم أصوله الحقة للغرب • ووجه العقل والوجدان ، وأزال الاغشية عن البصائر ، فمن المحتمل جدا أن يكون له فضل هذا الأصلاح •

(د) لمن يكون حق تفسير الكتاب ؟ وتتصل هذه المسألة بحركة التوفيق بين الدين والفلسفة •

قد يكون الخلاف في التفسير ومن له الحق فيه مما وجد عند المسلمين في زمن مبكر ، فكان هناك من يحاول منع التفسير بالرأي، وان كانت الغلبة لمن يجيزه للعلماء القادرين عليه كافة •

وقد أقام رجال الكنيسة أنفسهم في عهد السيطرة مقام المعصوم ، فأجازوه لأنفسهم دون غيرهم ، وجاء رجال الاصلاح البروتستانتي فأجازوه لكل مسيحي •

ومحاولة التوفيق بين الدين والفلسفة وجدت في الاسلام منذ وجدت الفلسفة عند المسلمين ، وانكار ذلك أيضا وجد عندهم قديما وحديثا ، فالمسلم الفيلسوف ، يرى من الحق عليه ان يحاول التوفيق بين علمه ودينه ، لأنه يرى صحة الامرين • وغير الفيلسوف يرى الحق لدينه فقط ، فينكر ما عداه • والفيلسوف غير المتدين يعد نفسه حرا طليقا لا يبالي ما يخالف الفلسفة ، وهذا أمر طبيعي وجد عند المسيحيين أيضا •

وقد أراد الأستاذ الخولي ان يربط ما تم في الاصلاح البروتستانتي بما هو حاصل في الاسلام لما عرف من صلة رجال هذا الاصلاح بالفلسفة المعروفة اذ ذاك ، والصلة القوية لهاتيك الفلسفة بالتفكير الاسلامي • وأنا أرى هذا شيئا قد يكون طبيعيا ، اذ لقي المسيحيون من عنت رجال الكنيسة وصلفهم ما يكفي وحده للثورة عليهم ، وتحرر العقل البشري من هذه القيود •

(هـ) امكان تحول الخبز والخمر في العشاء الرباني الى جسد المسيح ودمه :

ولعل الانكار في هذه المسألة لا يحتاج الى شيء أكثر من لفت النظر ، الا أن العقول اذا خدعتها الخوادع اطمأنت الى

مالا يحتاج ابطاله لكبير عناء . والأستاذ الخولى قد نظر فى تاريخ المسألة ، ووجد أن فكرة الاصلاحيين فى هذا التحــول مأخوذة من فكرة فلسفية سابقة وفقت بين العقل الذى لا يطمئن الى هذه الاستحالة ولا يسلم بها فى سهولة ، وبين الدين الذى يقرر هذه الاستحالة ، فانتهت الى وجود المسيح بجانب الخبز والنبيذ ، دون استحالتهما حقيقة . ورأى أن الفلاسفة من أصحاب هذه الفكرة ربما تأثروا بالحل الاسلامى الذى انتهى اليه الموفقون بين الدين والفلسفة فى مسألة الأسباب والمسببات فقرروا ان المسببات توجد عند أسبابها ولا توجد بها .

ولعل الشبه بين المسألتين مما فيــه محــل للنظر ، فانى لا أشعر بقوته شعور الأستاذ الخولى بها .

(و) الثورة على الأصنام والصور وتحطيمها :

وربط هذه المسألة بقواعد الاسلام ، وملاحظة تأثيره فيها مما يطمأن اليه .

★★★

والآن وقد فرغت من تلخيص القسم الثالث من الرسالة، لا يجوز لى أن اختم القول دون اظهار اعجابى بســعة اطلاع الأستاذ الخــولى ، وقوة صبره عــلى الدرس والبحث ، وقوة استنتاجه .

والأستاذ الخولى رجل يحب الجدل ، ولا يقتنع الا حيث يصح الاقتناع وهذا الشأن منه هو الذى حبب الى منازعتــه فى الرأى .

وان ما قاله فى بحثه من أنه لا يدعى أن صلة الغــرب بالشرق هى السبب الوحيد فى الاصلاح المسيحى لكفيل بان يرد عنه النقد او يخفف وقعه .

واذا علمنا أن الموضوع لم يحــاول من قبــل تملكنــا الاعجاب بعمله .

وهذه الدراسة التى حاولها الأستاذ فى هـذه المسألة ، خليقة بأن يقتدى بها علماء الدين فى دراسة الأديان ، دراسة مقارنة • فهى تعين على أداء رسالة الاسلام وتوسع آفق العالم المتدين ، وتزيده بصيرة فى دينه ، وتقديرا لعلماء السـلف من المسلمين • والله ولى التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل ؟

محمد مصطفى المراغى

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحـة

١ ـ البحث العلمي النزيه ، عن اتصال الأديان وآثار ذلك الاتصال ، خطوة صالحة ، في سـبيل السـلام العالمي ، والاخوة الانسانية ، التي سمت اليها الروح الدينية العالية، وحلمت بها الفلسفة منذ شروق شمس الحياة الفكرية ، ثم لا تزال تتطلع اليها العناصر الكريمة في الحياة العاملة •

هو بحث يوسع أفق المتدينين ، ويدفعهم من التدين الى آطهر معانيه ، على حين هو في الوقت نفسه ، واجب علمي لخـدمة الحقيقة ، يتـولاه الباحثـون في تاريخ الأيان ، ومقارنتها •

٢ ـ والاتصال بين المسيحية والاسلام في الشرق كان موضوع دراسات كثيرة(١) ولم يكن الاتصال ـ غير القصير ـ بينهما في الغرب موضوعا لمثل تلك الدراسات •

---

(١) من مظاهر ذلك : ما في دراسات العقائد ، ومجادلات أهل الدينين ، ومنه ما في البدع والزيادات التي تأثر بها كل قوم من مخالطيهم ، ومنه ما في دراسة الحياة الاجتماعية للاقطار التي جاور فيها المسلمون النصارى ، وما تأثر به هؤلاء وأولئك ، وفي كل هذه أبحاث متفرقة يمكن تتبعها •

والاصلاح البروتستانتي أكبر حادث متأخر في حياة المسيحية بعامة ، وأكبر حادث في حياتها الأوربية بخاصة • ومن أجل ذلك تسهل ملاحظة هذا الاتصال وآثاره فيه ، ولهذا اخترته موضوعا للدراسة ، قصدت فيه الى رسم الخطوط الأساسية ، والصورة الاجمالية لهذا الاتصال ، وذلك التفاعل (٢) بين الدينين الكبيرين ، تمهيدا لدرس أعمق من ذلك ، يتلوه ان شاء الله ، في رعاية دائمة لحقوق البحث التاريخي النزيه ، المتصدى لطلب الحقيقة البريئة الرزينة •

٣ ـ وانما أقصد الاسلام من حيث هو عقيدة لمعتقديه، ثم أعمال ومظاهر دينية في حياتهم ، وكذلك من حيث هو فكر وآراء عند دارسيه من المتكلمين ، وفلاسفة المسلمين ، فلكل ناحية من هذه النواحي آثارها •

وأقصد بالاصلاح المسيحي ، تلك الأعمال المادية والعقلية ، التي بذلت في سبيل تغيير نظام الكنيسة الرومانية ، خلال قرون طويلة ، وأجيال متعددة ، حتى جاء « مارتن لوثر » ذلك الرجل الشجاع الذى صير الاصلاح حقيقة واقعة ، وعملا مقررا • فهذا هو الوضع التاريخي الصحيح لحركة الاصلاح •

٤ ـ ومنهجي في ذلك الدرس طبيعي ، مرتب على أن أبحث :

(١) عن الاتصال المادى بين الاسلام والمسيحية في أوربا • ثم :

(٢) عن الاتصال المعنوى بين الاسلام والمسيحية في أوربا • ثم :

(٣) عن آثار ذلك الاتصال في أفكار الاصلاح المسيحي، وآراء دعاته ، خلال تلك الأزمنة الطويلة •

---

(٢) عبرت بالتفاعل وفي النفس ان شاء الله أن أعمد الى دراسة ما تأثرت به الحياة الاسلامية الدينية في الغرب ، والتزقت به عن نظيرتها في الشرق •

الفصل الأول

الاتصال المادى بين الدينين

١ ـ أظهر مظاهر هذا الاتصال بين الدينين ، تلك المواجهة الحربية بين أخلاط أمم الشرق ، ومختلف عناصر الغرب ، المواجهة التى سعى فيها الشرق حينا الى الغرب ، والغرب آنا الى الشرق ٠

فمنذ منتصف القرن السابع الميلادى ، خرج الاسلام يواجه المسيحية على شواطىء البحر الأبيض المختلفة ، فمازال حتى رده بحيرة اسلامية أو تكاد ، فاحتكم فى شواطئه الشرقية والشمالية والجنوبية ، وألقى جرانه غربا بالأندلس ، واستقر فى تلك المواطن أزمنة تختلف طولا وقصرا ٠ توطن فى أسبانيا وجنوبى فرنسا ، وايطاليا ، وساد سائر جزر ذلك البحر ، وكثرت مناوشاته للقسطنطينية فى المشرق ، وامتد فى فترات متقطعة الى غير ذلك من الغرب ، ففتح المسلمون نابل (نابولى) وجنوة (جنوة) (١)، وتغلبوا على رومية فى القرن التاسع ، حتى استنقذها البابا (حنا) بوعدهم جزية كبيرة ، واستنجد عليهم ملكى فرنسا وألمانيا ٠ هذا الى غارات لهم على مختلف المدن فى أنحاء ايطاليا (٢) ٠ كما امتلكوا بعض شواطىء نهر ردونه

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٩٩ (ط ٠ مصر) ٠

(٢) سيديو Sedeillat : خلاصة تاريخ العرب ، ص ١٤٧ ـ ١٤٨ ٠

(الرون) ، ووصلوا الى لودون (ليون) (٣) ، وامتلكوا صخرة ابتيون ، (افينيون) (٤) • وأقاموا بها بضع سنوات، وتلك الصخرة هى التى كانت فيما بعد مقر البابوية بضع عشرات من السنين فى القرن الرابع عشر ، وكانت منطقة « الالبيجوا » التى تنسب اليها شيعة مسيحية شهيرة ، ميدان غاراتهم (٥) ، وتوطنوا الميم (سبتمانية) مما يلى جبال البرتات من جنوبى فرنسا ، واذا ما خرجوا منه لم يلبثوا أن يعودوا اليه (٦) • وكذلك ظلوا فى بعض جهات جنوبى فرنسا من أواسط القرن الثامن الميلادى الى القرن العاشر على رأى بعض المؤرخين (٧) •

٢ ـ واتصلت بذلك الفتح المنظم حركات عصابات اسلامية قوية استوطنت فراكسينت ، على حدود فرنسا وايطاليا ، ولبثت فى تلك المنطقة وما حوالها حتى القرن العاشر الميلادى ، واحتلت مضايق الألب بحيث وقعت طرق الاتصال بين فرنسا وايطاليا فى قبضتهم (٨) ، بل عوهدوا على الاذن بالمرور منها معاهدات منظمة ، وهكذا أقاموا فى سافواى ، وجالوا فى جميع أنحاء سويسرا بلا معارض(٩)،

---

(٣) رينو M. Renaud كتاب غارات العرب على فرنسا ، ومن فرنسا الى سافواى ، وبيمونت وسويسرة فى القرن الثامن والتاسع والعاشر من التاريخ المسيحى ، حسب روايات المؤرخين المسلمين والمسيحيين • وهو أحد الكتابين اللذين ترجمهما الى العربية الأمير شكيب أرسلان ، ونشرا تحت اسم تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط : ص ٧٨ عربية •

(٤) رينو : المصدر السابق ص ١٠٤ •

(٥) رينو : المصدر السابق ص ٧٣ •

(٦) سيديو : ص ١٥٧ ـ ١٥٨ •

(٧) رينو : المصدر نفسه من تعليق المؤلف ص ١١٣ ـ ١١٤ •

(٨) رينو : المصدر نفسه ص ١٦٧ ، سيديو : المصدر نفسه ص ٦٦٢ •

(٩) رينو : المصدر نفسه ص ١٧٦ ، سيديو : المصدر نفسه ص ٦٦٢ •

وانتهى بهم الأمر الى استيطان هـذه المناطق من أوربا والاستقرار فيها، فزرعوا وعمروا، وتزوجوا ونسلوا(١٠)٠

★★★

ثم جاء دور الغرب فى أعقـاب ذلك توا ، فرمت أوربا الشرق بأفلاذ أكبـادها فى الحروب الصـليبية التى دامت قرونا ، وأسس الصليبيون على الشواطىء الشرقية للبحـر الابيض ، امارات أوربية مسيحية ، واستولوا احيانا على بيت المقدس ، واتصـلوا فى ذلك كله بقلب الشرق ، من مصر وسوريا ، وأطراف العراق وآسيا الصغرى ، فعرف الغرب الشرق فى دياره ، بعـد ما قدم الشرق نفسـه الى الغـرب فى داره ٠

ويتلو هذا الدور اتصال الصراع بين الاسلام والمسيحية على حكم أسبانيا حتى القرن الخامس عشر الميلادى ، عهـد الاصلاح المسيحى الذى نتحدث عنه ٠

هذه الحروب المتداولة ، وذاك الاسـتعمار من الشرق للغرب ، ومن الغرب للشرق ، كل أولئك قد تهيأت به فرص عملية متنوعة للاتصال بين الدينين ٠ وها نحن أولاء نشير الى بعض ذلك :

★★★

٤ ـ فى هذه الحروب ، وتلك المصادمات المختلفة ، كانت تؤخذ الأسرى من الجانبين ، فيطول مقامهم أحيـانا الى أن يفدوا ، ويعودوا الى بلادهم ألسنة تعريف بما رأوا وسمعوا، بل بما تأثروا به من المؤثرات الفكرية والدينية والعملية للأمم التى خالطوها ٠ ولقد عرفت أوربا من هؤلاء الأسرى أسير قرصنة شهيرا ، هو الذى دعوه «ليون الأفريقى» وما هو الا أبو على الحسن بن محمد الوزان الغرناطى الفاسى الذى

---

(١٠) فرديناند كللر Ferdinand Keller : كتاب غارات العرب على سويسرا فى أواسط القرن العاشر ، وهو الكتاب الثانى من الكتابين اللذين ترجمهما الأمير شكيب تحت عنوان « غزوات العرب فى فرنسا ٠٠٠ » : ص ٢٥٨ ، وسيديو : الخلاصة ص ١٦٢ ٠

أسره القراصنة ، في عودته من لدن السلطان سليم العثمانى، وقد كان سفر لديه عن ملك فاس مهنئا له بالتغلب على المماليك في مصر والشام وفلسطين وبلاد العرب ، وأهداه القراصنة الى البابا ليون العاشر ، فحبسه في قلعة القديس أنجلو ، برومية ، سنة كاملة ، حتى تعلم المسيحية على يد ثلاثة أساقفة ، وعمد بعد ذلك في كنيسة القديس بطرس ، بيد ليون العاشر نفسه ، الذى أعطاه اسمه « حناليون » • ومن هنا عرف باسم ليون الافريقي ، وظل بايطاليا عهدا عاد بعده الى أفريقية وعاد الى اسلامه ، وهناك كتب الوزان كتبا كثيرة قيمة ، نذكر من بينها مما يعنينا : كتابه عن « القانون والعقيدة الاسلامية (١١) » • وكان أسر الوزان وحياته في أوربا ابان ثورة الاصلاح بين سنة ١٥١٦ ــ ١٥٢٩ م • على أنى انما ذكرته مثالا فحسب ، لبيان ما قد يكون من التأثر والتأثير الديني بالاسرى ، والنازلين من أهل الدينين في الشرق والغرب ، لا لأنا ندعى له بنفسه أثرا خاصا في حياة الاصلاح المسيحى •

★★★

٥ ــ وما أن يتمادى الوقت حتى ترى الحرب نفسها أداة اتصال مباشر بين المسيحية بأهلها في الغرب ، والاسلام بأهله في تلك المناطق ، اذ نشهد صفوفا من المسيحيين الأوربيين يقاتلون تحت اللواء الاسلامى : اما عن طريق جعل الأسارى المسيحيين وسبيهم جنودا ، واما عن طريق تقدمهم الى تلك الخدمة عن طيب خاطر (١٢) ، في جيوش

---

(١١) دائرة المعارف الايطالية الجديدة مادة ليون Leone • وقد كتب الأستاذ أبو عبد الله محمد المهدى ابن الشيخ الحجوى الفاسى بحثا عن الوزان قدمه لمؤتمر المستشرقين بفاس سنة ١٩٣٣ كما أفردت حياته بالمؤلفات في الايطالية •

(١٢) رينو . المصدر نفسه ص ٢١٢ •

المسلمين بالأندلس ، بل جيوشهم فى بلاد المغرب أيضـا ، اذ يحدثنا ابن خلدون فى المقدمة (١٣) أنه « نظرا لضرب المصاف وراء العسـاكر ، وتأكـده فى قتال الكر والفر ، صار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الأفرنج فى جندهم ، واختصوا بذلك ، لأن قتال أهل وطنهم كله بالكر والفر » .

وكانت جيوش ملوك الأفرنج أيضا قد تنتظم جندا من المسلمين : اما عن طريق تلك الغلبـة ، كالذى يروى من اتخاذ «رجار» ملك صقلية لجملة من العبيد المسلمين ، وعليهم قائد منهم ، كما كان وزراؤه وحجابه الفتيان ، الذين له منهم جملة كبيرة ، هم أهـل دولته (١٤) . واما عـلى سبيل الاستعانة بهم كما يروى أن فردريك الثانى هو هنشتاوفن امبراطور الدولة الرومانية المقدسة الآتى ذكره ، قد اتخـذ فى جيشه الجند المسلمين (١٥) ، فكانت صفوف الجند فى الغرب مجالا لالتقاء اهل الدينين ومخالطتهما ، سواء فى ذلك الجيوش الاسلامية ، والجيوش المسيحية .

★★★

٦ ــ ونلمح فى تاريخ القتال بين أهل الدينين ، ضربا من الدعاية السياسية التى تمس النواحى الدينية ، اذ يروى لنا تبادل المتقاتلين نشرات للدعاية الموهنة للقوة المعنوية ، وردودا على تلك النشرات للغرض عينه ، ففى حروب نقفور

---

(١٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٨ (ط . مصر . عبد الرحمن محمد) .

(١٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ٣٠٨ ط . مصر ــ

وتقرأ فى تراث الاسلام : ج ١ ص ٨ من الترجمة العربية ما نصه : « ونرى عددا من حكام قشتالة يحيطون أنفسهم بعلماء المسلمين ، ويستخدمون مهندسين مسلمين ، ويستمعون الى موسيقيين مسلمين ، ويستمتعون بخير ما فى الثقافة الاسلامية » . وفى ص ٢٣٢ منه ما نصه : « على أن المغيرين النورمانديين والصقليين قد أحاطوا العلوم العربية برعايتهم وأخذوا بالعادات الاسلامية أخذا شاملا » ، كما تقرأ فيه أيضا ج ١ ص ٥٤ : « ان ألفونس السادس كان بلاطه مسيحيا اسما ، وانه أعلن نفسه **امبراطور العقيدتين** » .

(١٥) روى ذلك الأمير شكيب أرسلان فى تعليقاته على ترجمة كتابى : رينو وكنلر ، وكرره فى ثلاثة مواضع ص ١٤١ ، ١٥٤ ، ١٧٤ . وقال الأستاذ ارنست باركر فى كتاب تراث الاسلام ص ١٣٥ ج ١ من الترجمة العربية الحديثة « ان فردريك الثانى استخدم جيشا عربيا ضد البابا . وفى ج ٢ من تراث الاسلام ص ٣٣ تعليقة ٢ نقلا عن مدام ديفونشير ذكر قلعة « لوسيرا التى اتخذ فيها فردريك الثانى مسلحة من الجنود العرب » .

فوقاس الثانى (١٦) امبراطور بيزنطة ، مع المسلمين ــ فى القرن الرابع الهجرى ــ أرسل الروم ألى جيش المسلمين قصيدة عربية فى ٥٤ بيتا (١٧) ، يفخر فيها نقفور بماضى انتصاراته ، ويعلن عزمه على طرد العرب الى الحجاز ، ويعرض لنقد الحكومة الاسلامية اذ ذاك ، بتغلب الديلم عليها ، الى نحو هذا من التوهين لنفسية غزاة المسلمين .

وقد تولى الرد الاسلامى على هذه القصيدة ، الفقيه الشافعى العظيم **محمد بن على بن اسماعيل القفال الكبير الشاشى** ، اذ كان بين جنود الجيش الاسلامى ، فنظم قصيده فى (٧٤) بيتا ، فيها الى جانب السياسة امور دينيه عن خطأ المسيحيين فى اعتمادهم ، واضطراب أناجيلهم ، وما الى هذا (١٨) .

فمثل هذه الدعايات التى يقصد بها الفت فى عضد الجيوش ، مما يقع بين المتقاتلين ، وليس من البعيد أن تكون قد تكررت على هذا الأسلوب الشعرى أو غيره بين المسيحيين والمسلمين فى الشرق والغرب ، ومست قضايا وأصولا دينية ،

---

(١٦) من الطريف ، ونحن بصدد الحديث عن الاتصال الدينى بين المسيحية والاسلام أن نذكر الرواية الاسلامية عن أصل هذا الامبراطور البيزنطى ، فقد جاء فى الكامل لابن الأثير . ج ٨ ص ٢٠٠ ط مصر . ما نصه : ــ « ولم يكن ــ أى نقفور ــ هذا نصرانى الأصل ، وانما هو من ولد رجل مسلم من أهل طرسوس يعرف بابن الفقاس ، تنصر وكان ابنه هذا شهما شجاعا حسن التدبير لما يتولاه ، فلما عظم أمره ، وقوى شأنه قتل الملك الذى كان قبله ، وملك الروم بعده ، وجعل نقفور همته قصد بلاد الاسلام والاستيلاء عليها » أ هـ بلفظه .

ولست آقف هنا لتحقيق هذا ، وانما اكتفى بما فيه من اشارة الى المصادر المختلفة للاتصال بين الدينين ، والتمهيد القوى للتبادل الفكرى .

وقد حكم نقفور هذا من سنة ٩٦٣ م ــ سنة ٩٦٩ م .

(١٧) منها نسخة خطية فى جزء صغير بمكتبة فينا ، تزيد أبياتا عما أورده صاحب طبقات الشافعية ، ومعها رد الشيخ القفال كما ساقه صاحب الطبقات .

(١٨) تاج الدين السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ١٧٩ وما بعدها . ط مصر ــ وفى ص ١٨٤ من هذا الجزء : أن ابن حزم الظاهرى قد أجاب عن هذه القصيدة النقفورية بقصيدة أخرى فى (١٣٧) بيتا ساقها السبكى أيضا بعد ما قال « وكأنه ــ ابن حزم ــ لم يبلغه جواب القفال » . وسنشير الى هذا الرد فيما يلى فقرة (٧) .

اذ كانت الاعتبارات الدينية هى التى تسيطر على الحياة ، وتسود العواطف فى تلك الأعصر •

★★★

٧ ــ ونلاحظ أن تلك الحروب كانت تخلق ما نستطيع أن نسميه باصطلاح هذا العصر « نقطا دينية » فى الأنحاء المسيحية كالنقط العسكرية للدول القوية ، اذ نجد الأخبار عن مسجد اسلامى بالقسطنطينية يظهر أن المسلمين قد أنشئوه فيها منذ عصر مبكر ، أيام ترددهم لغزوها فى القرن الأول الهجرى ، اذ يذكر ابن حزم فى رده على قصيدة نقفور السابقة مسجدا قديما انشأه مسلمة بالقسطنطينية فيقول :

ومسلمة قد داسها بعد ذا كم
بجيش لهم كالليوث الضراغم
واخدمكم بالذل مسجدنا الذى
بنى فيكموا فى عصرنا المتقادم (١٩)

وغزو مسلمة بن عبد الملك هذا كان فى أواخر القرن الأول الهجرى (٩٨ هـ ــ ٧١٦ م) •

فلعل هذا المسجد ظل قائما بالقسطنطينية حتى كانت عمارته والعناية به ، مما يدخل فى تنظيم العلاقة بين المسلمين والروم الشرقيين اذ نقرأ أنه فى سنة ٤٤٠ هـ ١٠٤٨ م بعث ملك الروم يطلب الهدنة من طغرلبك ، وهاداه وعمر مسجد القسطنطينية ، وأقام فيه الصلاة ، والخطبة لطغرلبك (٢٠) •

وفى سنة ٥٨٦ هـ ١١٩٠ م • وافى كتاب ملك الروم بالقسطنطينية يخبر بوصول المنبر من عند السلطان ، وكذلك الخطيب والمؤذنون والقراء ، وأن الخطبه أقيمت بالجامع القديم بالقسطنطينية للخليفة الناصر لدين الله (٢١) •

---

(١٩) السبكى : طبقات الشافعية جـ ٢ ص ١٨٥ ط • مصر •

(٢٠) تقى الدين المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٣٢ ط • مصر سنة ١٩٣٤ •

(٢١) المصدر السابق : جـ ١ ص ١٠٤ ط • مصر •

ويبدو أن هذه النقطة الاسلامية لم تكن مسجدا فحسب، بل كانت جالية اسلاميــة تنزل القسطنطينية قبــل فتحهــا العثماني ببضعة قرون ، اذ تجد أنه في سنة ٥٩٢ هـ ١١٩٥م ورد كتاب ملك الروم يتضمن أن كلمة الروم قــد اجتمعت عليه ، وأنه أحسن الى المسلمين ، وأمرهم باقامة الجامع ، فأقيمت فيه يوم الجمعة الصلاة مع الخطبة ، وأنه غمر جانبا منه ، كان انهدم ، من ماله ، فتمكن من في القسطنطينية من المسلمين من اقامة الجمعة والجماعة بها (٢٢) ٠

هذا هو ما دعوته النقطة الدينيــة في بلاد مســيحية ، وما رأينا أن تأمينه يدخل في حساب العلاقات السياسية ، ومن المحتمل أن تكون قد وجدت نقط أخرى ، ومعاقل دينية من هذا القبيل في غير القسطنطينية ٠ وكان لها نصيبها في وصل ما بين الاســلام والمسيحية في الغــرب وتعــريف أحدهما بصاحبه ٠

★★★

٨ ــ وتلك الصــلات الحربيــة والسياسية تحوج الى تبادل الوفود بين الجيوش والحكومات لعقد الهدنة ، وتقرير الصلح ، وتوطيد العلاقات ، وفي هذه الوفود نرى نزوعا خاصا من المسلمين والمسيحيين ، الى اختيار رجال دينيين : يصمدون للمناقشات والمجــادلات الاعتقــادية ، التي كانت تجري عند التقابل ، حتى في الحفــل الرسمي الذي يقــام لاستقبال السفير الوافد ، وشاهد هذا من الجانب الاسلامي ، ما نراه في اختيار مثل القاضي أبي بكر محمــد بن الطيب البــاقلاني (٤٠٣ هـ) للســفارة بــين المســلمين والــروم الشرقيين (٢٣) ٠ وفي الغرب نرى « أوتون » ملك جرمانيا في القرن العاشر ، يعنى بأن يختار عالما لاهوتيا يعتمد عليه في المناقشة الدينية مع المسلمين ليبعثه الى قرطبة ، فيختار

---

(٢٢) المصدر السابق : جـ ١ ص ١٢٩ ط ٠ مصر ٠

راهبا من رهبان دير جورز Gors بقرب ميتز ، اسمه « جان » عرف بضلاعته في اللاهوت ، وقد حاول في تلك البعثة أن يقنع الخليفة « الناصر » الأندلسي باعتناق المسيحية • كما تشير الى ذلك الرواية الأوربية (٢٣م) •

٩ — ومن آثار ذلك الاتصال المادي ان الاستعمار الاسلامي اذا ما انحسر عن الأقطار الغربية ، ترك فلولا بل جموعا تطويها اللهجة الغامرة من الغلبة السياسية والحربية ، فتليها في المسيحية الغربية ، عناصر تلقيح ، وطرق تعريف بالاسلام ، وهكذا كان الأمر عندما استردت جزر البحر الأبيض من الاسلام ، كقبرص ، وأقريطش ، ورودس، وصقلية ، وغيرها من مناطق الاستعمار الاسلامية في أوربا، فتنصر أهلها وبقوا مسلمين مغلوبين • عبيدا أو كالعبيد •

---

(٢٣) ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٣٧١ هـ • أنه : فيها أرسل عضد الدولة القاضي أبا بكر محمد بن الطيب الأشعري المعروف بابن الباقلاني الى ملك الروم في جواب رسالة وردت منه •

والى القارىء بعض ما وصلنا من مناقشات القاضي لرجال المسيحية من الروم :

دخل القصر يوما فرأى عند الامبراطور بعض مطارنته ورهبانه ، فقال له مستهزئا به ، كيف أنت وكيف الأهل والأولاد ؟ فتعجب منه الامبراطور ، وقال له : ذكر من ارسلك في كتاب الرسالة ، أنك لسان الأمة ، ومقدم على علماء الملة ، أما علمت أنا ننزه هؤلاء عن الأهل والأولاد !! • فقال القاضي أبو بكر أنتم لا تنزهون الله سبحانه وتعالى عن الأهل والأولاد ، وتنزهونهم فكان عندكم أقدس وأجل وأعلى من الله سبحانه وتعالى •

وقصد الامبراطور يوما توبيخه فقال له : أخبرني عن قصة عائشة زوج نبيكم وما قيل فيها ؟ •• فقال له القاضي أبو بكر : هما اثنتان ، قيل فيهما ما قيل ، زوج نبينا ، ومريم بنت عمران ، فأما زوج نبينا فلم تلد ، وأما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفها • وكل قد برأها الله مما رميت به •

وكان القاضي الباقلاني مبعوثا سياسيا ، سريع الخاطر لبقا ، رووا أنه في هذه الرسالة عرف الامبراطور خبره ، ومحله من العلم وموضعه ، فاعتقد أن القاضي لن يكفر له اذا دخل عليه ، كما جرى رسم الرعية أن تقبل الأرض بين يديه ، فاحتالوا لذلك بأن جعلوا الاستقبال في حجرة ، لها باب لطيف ، لا يمكن أحدا أن يدخل منه الا راكعا ، وجعلوا السرير وراء هذا الباب ، ليدخل القاضي راكعا ، فيكون ذلك عوضا من تكفيره • فلما ذهب القاضي سار حتى وصل الى المكان ، فلما رآه فطن الى القصة ، فأدار ظهره ، وحنى رأسه راكعا ودخل من الباب ، وهو يمشي الى الخلف ، وقد استقبل الملك بظهره ، حتى صار بين يديه فرفع رأسه ونصب ظهره ، وأدار وجهه ، وكذلك كان سريع الخاطر دينيا وعمليا • رحمه الله •

ابن عساكر : تبيين كذب المفترى ٢١٨ — ٢١٩ ط دمشق •

(٢٣م) رينو : المصدر السابق — ص ١٧٧ من الترجمة العربية •

وها هو ذا الرحالة الاسلامى الكبير أبو الحسن محمد بن أحمد ابن جبير ، يحدثنا عن قصة لأحد فقهاء حاضرة جزيرة صقلية بعد استيلاء النورمنديين عليها ، فى معرض سوء حالهم الدينية اذ ذاك ، فيقول : « .. فمنها قصة اتفقت فى هذه السنين القريبة لبعض فقهاء مدينتهم التى هى حضرة ملكهم الطاغية ، ويعرف بابن زرعة، ضغطته العمال بالمطالبة حتى اظهر فراق دين الاسلام، والانغماس فى دين النصرانية، ومهر فى حفظ الانجيل ، ومطالعة سير الروم ، وحفظ قوانين شريعتهم ، فعاد فى جملة القسيسين الذين يستفتون فى الأحكام النصرانية ، وربما طرأ حكم اسلامى فيستفتى ايضا فيه لما سبق من معرفته بالأحكام الشرعية ، ويقع الوقوف عند فتياه فى كلا الحكمين » (٢٤) .

وستسمع فيما بعد ــ الفصل الثانى فقرة ٨ ــ أن راهبا كان مسلما ثم تنصر ، قد ساعد فى ترجمة القرآن الى اليونانية (٢٥) ، وأن رئيس حصن مستعمرة فراكسينت الاسلامية التى سبقت الاشارة اليها قد تنصر حين هزم ، وتنصر معه آخرون ، كما بقى بعض من معه مسلمين أرقاء فى تلك المنطقة (٢٦) .

وقد كان من آثار ذلك أن وجدنا أقليات اسلامية فى أنحاء مختلفة من أوربا ، وشهدت بذلك آثار غربية محفوظة، ففى فرنسا كان من المسلمين ، فى القرن الثالث عشر الميلادى، عدد يهتم به مجمع الأساقفة فى « طركونة » بأسبانيا سنة ١٢٣٩ م . فيصدر أمرا باجبارهم على اتخاذ زى خاص بهم (٢٦م) . كما كان منهم أرقاء مستعبدون ، يفرون من

---

(٢٤) رحلة ابن جبير : ص ٣٢٤ ــ ٣٢٥ ط . بمصر .

(٢٥م) الدرة النفيسة فى شرح حالة الكنيسة ، المترجم عن اليونانية من مختصر تاريخ استفانوس قوميطا ، المقتطف من تاريخ ملاتيوس مطران آثينا الكنايسى : ط . اورشليم سنة ١٨٦٧ م .

(٢٦) رينو : المصدر نفسه ــ ص ١٨٨ ــ ١٨٩ من الترجمة العربية .

(٢٦م) رينو : المصدر نفسه ص ٢٢٧ ــ ٢٢٨ من الترجمة .

عذاب الاضطهاد الى المسيحية ، يعتنقونها ، فيعذبون ليحال بينهم وبين اعتناق المسيحية ، أو يستمر ارهاقهم بعد اعتناقها بأشد ما يمكن ، حتى أصدر البابا كليمنضوس الرابع سنه ١٢٦٦ م منشورا عنفه به رئيس دير لتعذيبه رجلا مسلما غنيا كان قد تنصر ، فزعم هذا الرئيس أن تنصره غير حقيقي ، توصلا بذلك الى ضبط أملاكه وحرمان أولاده منها (٢٧) ٠

ويتحدث حتى اليوم عن أسر في جنوب فرنسا لا تزال تحمل اسم « سارازان » ومن بين رجالها من له شان علمي (٢٧م) ، وما ذلك الا أثر لما كان من تنصر عدد كبير من المسلمين في فرنسا ، كما كان عدد الفرنسيين الذين اتخذوا الاسلام دينا أكبر ممن تنصر (٢٨) ٠

ويتصل بهذا ما يحدثنا به ياقوت في معجم البلدان عن وجود مسلمين في بلاد « هنجاريا » — المجر — التى يدعوها « الهنكر » (٢٩) في القرن الثالث عشر الميلادى ٠

---

(٢٧) رينو : المصدر نفسه ص ٢٢٧ — ٢٢٨ من الترجمة العربية ٠

(٢٧م) تعليق للأمير شكيب أرسلان على ترجمته لكتاب رينوص ٢٢٨ ، يذكر فيه وجود تلك الأسر في فرنسا وفي سويسرا أيضا ، ويسمى منها العالم الفيلسوف أبو زيد (Abauzil) المعاصر لفولتيرو روسو ، ونيوتن ، وصديقهم جميعا ٠

(٢٨) رينو : المصدر نفسه ص ٢٢٨ — ٢٢٩ من نص المؤلف ٠

(٢٩) في مادة باشغرد — جـ ٢ معجم البلدان لياقوت يقول : « ٠٠٠ وأما أنا فاني وجدت بمدينة حلب طائفة كثيرة يقال لهم الباشغردية شقر الشعور والوجوه جدا ، يتفقهون على مذهب أبي حنيفة رضى الله عنه ، فسألت رجلا منهم استعقلته عن بلادهم وحالهم ، فقال : أما بلادنا فمن وراء القسطنطينية ، في مملكة أمة من الافرنج يقال لهم « الهنكر » ونحن مسلمون رعية لملكهم ، في طرف بلاده نحو ثلاثين قرية ، كل واحدة تكاد أن تكون بليدة ، الا أن ملك الهنكر لا يمكننا أن نعمل على شيء منها سورا خوفا من أن نعصي عليه ، ونحن في وسط بلاد النصرانية ، فشمالينا بلاد الصقالبة ، وقبلينا بلاد البابا ، يعني رومية ، والبابا رئيس الافرنج ، هو عندهم نائب المسيح ، كما هو أمير المؤمنين عند المسلمين ، ينفذ أمره في جميع ما يتعلق بالدين في جميعهم ٠ قال : وفي غربينا الأندلس وفي شرقينا بلاد الروم ، قسطنطينية وأعمالها ، قال : ولساننا لسان الافرنج ، وزينا زيهم ونخدم معهم في الجندية ، ونغزو معهم كل طائفة لأنهم لا يقاتلون الا مخالفي الاسلام ، فسألته عن سبب اسلامهم مع كونهم في وسط بلاد الكفر ، فقال : سمعت جماعة من أسلافنا يتحدثون أنه قدم الى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفر من المسلمين من بلاد بلغار — قلت =

١٠ ـ تلك مظاهر اتصال مادية ترجع الى الحرب بين الشرق والغرب ، وما يتصل بها من وفادة وما اليها •

وثمت أعمال سلمية لها أهميتها فى مثل تلك الصلات بين الدينين ، فرجال الحكم أنفسهم حين لا يحاربون ، تدفعهم مطالب السياسة الى توثيق الصلات بأسباب التودد المختلفة ، ومن بينها ما يتخطى حدود الاختلاف الديني، ويهيىء التفاهم القريب ، كالمصاهرة ، فنرى فى الشرق الأمبراطور ـ كانتا كوزينو ـ الذى سنعرف أنه ترهب وترجم القرآن ـ يصهر الى السلطان العثماني اورخان ، ويحمل اليه ابنته «تيودورة» التي تقيم على دينها فى قصره (٣٠) •

ونرى في الغرب نفرا من أولى الأمر فى الأندلس يتزوجون أميرات غربيات ، فقد تزوج عبد العزيز بن موسى ابن نصير أرملة الملك لذريق (٣١) ، كما تزوج زياد بن النابغة التميمي احدى بنات ملوك الأندلس (٣٢) ، وتزوج

= وهو يذكر فى صدر المادة خبر بعثة الخليفة المقتدر بالله الى ملك الصقالبة الذى كان قد أسلم هو وأهل بلاده ليفيض عليهم الخلع ويعلمهم الشرائع الاسلامية ـ وسكتوا بيننا وتلطفوا فى تعريفنا » الخ ما يذكره من زيهم وعاداتهم وبعد بلادهم ص ٣٧ و ٣٩ جـ ٢ ط • مصر •

هذا والاسلام اليوم فى المجر قليل مستضعف ، لا يكاد يوجد الا بين نفر من متخلفي الألبانيين ونحوهم فى تلك البلاد •

(٣٠) روبرتسون وليم (R. Witiam) مقدمة تاريخ شارلكان ـ الترجمة العربية ص ٣٧٤ •

(٣١) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٨ ط مصر • ويقال ان عبد العزيز سماها زهرة بنت عيسى يريد أنها وردة المسيحيين • وفى هذا الزواج نفسه ظاهرة واضحة للتأثير ، فقد ذكر ابن الأثير أن زوجة عبد العزيز حظيت عنده ، وغلبت عليه فحملته على أن يأخذ أصحابه ورعيته بالسجود له اذا دخلوا عليه ، كما كان يفعل زوجها رذريق • فقال لها ان ذلك ليس فى ديننا ، فلم تزل به حتى أمر ففتح باب قصير لمجلسه الذى كان يجلس فيه ، فكان أحدهم اذا دخل منه طأطأ رأسه فيصير كالراكع فرضيت به ، وصار كالسجود عندها • فقالت له الآن لحقت بالملوك ، وبقى أن أعمل لك تاجا مما عندى من الذهب واللؤلؤ ، فأبى فلم تزل به حتى فعل ، فانكشف ذلك للمسلمين ، فقيل تنصر ، وفطنوا للباب ، فثاروا عليه فقتلوه •

(٣٢) أخبار مجموعة ط مدريد ص ٢٠ •

عثمان بن أبى نسعة ابنة دوق أكيتانه (٣٣) وغيرهم • بل ان العناد السياسى قد دفع ببعض أمراء المسلمين المشاغبين الى أن يصهر الى بعض ملوك الفرنجة ، ويزف اليه ابنته ، كما فعل موسى بن زياد والى سرقسطة ، أيام محمد بن عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس (٢٣٨ ـ ٢٧٣) اذ عزله الأمير فعصى عليه ، وكان أن زوج ابنته من أمير نفارة المسمى غرسية (٣٤) •

فكان فى هذه الصلات وأشباهها مما كثر ولابد فى عمل الأفراد ، ما يعرف كل دين بصاحبه فى الغرب تعريفا قويا •

١١ ـ واذا سعى رجال السياسية بعضهم الى بعض ، فقد سعى مثل هذا السعى رجال الدينين أيضا فى سلم أو ما يشبهه حينا، وفى حرب أو ما يشبهه حينا بغية نشر الدين، وكسب الأتباع ، وعندنا من مثل هذا الاتصال بين رجال الدينين فى الشرق ، وتناقشهما الدينى مالا نحب أن نعرض لتفصيله ، وان كنا لا ننسى أن لهذا الاتصال الشرقى ، أثره فى الغرب . اذ ظلت الكنيستان الشرقية والغربيه متحدتين الى القرن العاشر الميلادى ، كما لم ينقطع التعاون بينهما بعد الانفصال على رد الهجمات الاسلامية الاعتقادية وغير الاعتقادية •

وفى الغرب نفسه نجد ذلك السعى الى التبشير بين المسلمين ، فسان فرنشسكو رأس الرهبنه الفرنشيسكانية ـ ق ١٣ م ـ يرحل الى الشرق من أجل ذلك الغرض ، ويتقدم الى معسكر الملك الكامل الأيوبى بدمياط سنة ١٢١٦ م ليدعوه الى اعتناق المسيحية (٣٥) • و « ريموند لول » تضطرم فى نفسه رغبة عنيفة حادة للتبشير بالمسيحية بين

(٣٣ ، ٣٤) محمد دياب بك : تاريخ العرب فى اسبانيا ص ٣٩ ، ١٧٦ نقلا عن مصادر غربية •

(٣٥) الكونت هنرى دى كاسترو : الاسلام • خواطر وسوانح ص ١٨٦ ـ ١٨٧ من الترجمة العربية •

المسلمين ، ويرى ذلك أعظم غاية في حياته (٣٦) • ونرى « بابات » رومية أنفسهم يشاركون في هذه الدعوة بالمكاتبة، فيرسل البابا بيو الثاني Pio 2 الى اسلطان محمد الفاتح عقب سقوط القسطنطينية في يده رسالة يدعـوه فيهـا الى اعتناق المسيحية ، ويناقش فيها تفاصيل في الدينين ، الاسلام والمسيحية (٣٧) •

فهذه أمثلة تصـور لنـا الرغبـة القـوية في الدعاية للمسيحية ، تلك الدعاية التي تقوم بلا شك على معرفة غير قليلة بالاسلام يحتاج اليها المتصدى للمناقشة والمفاضلة •

١٢ ــ ووراء هذا الاتصال حربيه وسلميه ، تلك الحياة المدنية العادية ، التي لن تخضعها للعزلة المواضعات المتخالفة من أديان ولغات وغيرها ، مهما قويت محادتها ، بل تسيرها الروابط الاجتماعية ، والمصالح الاقتصادية القاهرة ، وعلى هذا الأساس كانت للمسلمين الشرقيين والغربيين رحلاتهم الاقتصادية في قلب أوربا ، وأقصى شـمالها وغربها ، مما كان تطول مدته سنين بحكم صعوبة طرق الاتصال والنقل وبطئها •

ونقرأ طرفا من وصف تلك الأسفار في كتب الجغرافيا العربيه ، وكتب الرحلات (٣٨) • ولهذه السياحات اثرها في صلة الشعوب والأديان ، على نحو ما نرى فعله اليوم مثلا في نشر تجار المسلمين لدينهم في قلب أفريقا ، فهل تدون رحلاتهم القديمة في قلب أوربا غير ذات اثر في التعريف بالاسلام !!!

وكذلك كان يرحل تجار الغرب الى الشرق بحكم غناه ورقيه ، وقد كثرت تلك الرحلات ، واتصلت بعد ما مهدت

---

(٣٦) فيورنتينو Florentno : مختصر تاريخ الفلسـفة جـ ١ ص ٣٠٥ والفريد وليام A. Yiullaume تراث الاسلام ص ١٧٢ •

(٣٧) الكونت هنري دى كاسترو : الاسلام ص ١٦٦ ــ ١٦٧ من الترجمة العربية •

(٣٨) أمين الخولى : رسالة فى السياحات الاسلامية ــ مخطوطة •

الحروب الصليبية منذ أول عهدها للاختلاط القوى ، وزادت التعرف بينهما ٠

والى جانب ذلك رحلات غير التجار من الغربيين لأغراض مختلفة ، من نزهة وتطبب ، واستفادة ، ووصفهم لما يشهدونه في الاقطار الاسلامية في كتب رحلاتهم واحاديثهم، مما كان قد ينطوى في تلك العصور على غير قليل من الاخطاء في التعريف بالشرق والاسلام ، لكنه عامل له قيمته في وصل ما بين الدينين على كل حال ٠

فتتعاون تلك العوامل الجمة على تعريف الغرب بالكثير من آراء الاسلام وعقائده ، تعريفا لابد أن يكون له اثره بفعل النواميس الكونية في حياة الأفكار والآراء والعقائد ، من حيث تأثير بعضها في بعض ٠

الفصل الثانى

(الاتصال المعنوى بين الدينين)

١ ــ في الوقت الذى كانت تجنح فيه الأمة الأسلامية(١) الى الاستقرار لتقوم بنصيبها فى خدمة المدنية الانسانية شرقا وغربا ؛ خلال المدة من القرن الثامن الى الثالث عشر الميلادى ، فى ذلك الوقت كانت الحياة الاجتماعية والعقلية بل الدينية فى الغرب غافلة هامدة ٠

كان فيه ما هو صورة أمة أو حكومة ، لكن لا أمة ولا حكومة(٢) : الأشراف فيه جهلاء ، أميون ، حتى ليوقعون الوثائق والقوانين المهمة ، بصورة صليب ، هى كل مايعرفون من الامضاء ؛ وحتى ليرى فى القرن التاسع الميلادى ، رئيس المحكمة ، وأعظم قضاة الدولة أميا لا يكتب؛

---

(١) آثرت أن أصفها « بالاسلامية » لا « بالعربية » . لأن الوصف الأول هو الصحيح فى التاريخ ، اذ لا يصدق وصفها بالعربية عهدا طويلا ، فقد كانت بعد يسير من ظهور الاسلام ، بفضل انتشاره وامتداد حركة الفتح ، مؤلفة من عناصر مختلفة ليس العرب أكثرها ٠

(٢) م٠ جيزو M. Juzot . التاريخ العام للحضارة فى أوربا بعد سقوط الامبراطورية الرومانية ٠٠٠ وهو المترجم الى العربية تحت عنوان التحفة الأدبية فى تاريخ تمدن الممالك الأورباوية ، على يد الخواجة حنين نعمة الله خورى والمطبوع بالاسكندرية سنة ١٨٧٧ م ــ ١٢٩٤ هـ ٠

وجوستاف لوبون : تاريخ حضارة العرب ص ٦١٤ ٠

وروبرتسون وليم : كتاب تاريخ شارلكان ، المقدمة ص ٣١ ، ٣٢ ، ٢١٦ من الترجمة العربية ٠

بل فى القرن الرابع عشر ، كان رئيس الجيوش الفرنسية ، واعظم رجال الدوله ، واول أكابر عصره آميا(٣) ٠

وكان الدين المسيحى قد صار الى بدع بربرية واكثر رجاله جهلة ، لا يستطيعون التوقيع على القوانين التى تصدرها المجامع ٠ والقلة المتعلمة منهم كانوا يمضون وقتهم فى الأديرة ، يمحون المؤلفات القديمة ليحصلوا على الاوراق اللازمة لنسخ الكتابات الدينية (٤) ٠

٢ ــ فى هذه الحال الآنف شرحها ، بدأ الاتصال المعنوى بين الاسلام والمسيحية ، ذلك الاتصال الذى لانريد الافاضة فى وصفه ، بل نناله بقدر ما نبين طرائق تصل المعارف الدينية وآثرها فى الحياة المسيحية ، وفى العقلية المسيحية ، وصلة العقلية بالحياة الدينية ، وما الى هذا مما هو طريق لبيان ما قصدنا اليه من صلة بين الدينين ٠

واذا كان يستكثر اطلاق القول بأستاذية العرب التامة للغرب فى كل شيء وأن كل العلماء المعروفين من جميع الامم الى القرن الثالث عشر أو الخامس عشر انما كان كل عملهم هو تقليد العرب (٥) ، فلا مفر من القول بأن الثقافة الاسلامية قامت بدور المرشد الأمين ، وأمدت متعلمى القرون الوسطى بمادة كثيرة لدراستهم (٦) ٠

---

(٣) المصادر السابقة نفسها ٠

(٤) المصادر السابقة نفسها ٠

(٥) فيبر (Weper) : كتاب تاريخ العالم (Weltgeschichte) ج١ فقرة ٤٤٤ ص ٨٠٦ ٠

وروبرتسون وليم : المصدر السابق ص ٢٩٩ ٠

وجوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٦١٨ ٠

(٦) ر٠ وليم : المصدر السابق ص ٢٩٩ ٠

وجويدو دى روجيرو : تاريخ الفلسفة المسيحية ج ٣ ص ٥ ٠

والفريد جيوم : تراث الاسلام ص ٢٤٣ من الأصل وص ٢٣٤ ج ١ من الترجمة العربية التى نشرتها حديثا لهذا الكتاب « لجنة الجامعيين لنشر العلم » ٠

٣ ـ وأول ما بـدأ ذلك الاتصـــال ، كان بالتعلم من مســلمى الشرق والغرب الذين كانت بلادهم معاهد يتنفف فيها الخاص والعــام ، ومرجــع المستفيدين من الغربيين ، الذين لهم عناية بالعلم ، وقد كانوا بادىء الأمر قليلين ، ثم تكاثروا بانتشار المعارف بينهم ٠

واذا كان قد يشك فى أن البابا سلفستر الثانى نفسه « سنة ٩٩٩ م » ، قد تعلم على العرب فى بلادهم ، فلن يشك أبدا فى أن كثيرين غيره قد تعلموا فى هذه البلاد ٠

ثم تلا هــذا الدور دور محاولة نقل المعارف الى انحاء أوربا فكان الناقلون لهذه المعارف العجيبة ، المدهشة أبناء عصرهم ، يتهمون بالسحر (٧) ٠

ونمت حركة هذا النقل فيما بعد حتى ، لنرى قسطنطين الأفريقى الملقب بمعلم الشرق والغرب، فى القرن الحادى عشر الميلادى ، ذا نشاط عجيب فى ترجمة العلوم عن العربية(٨) ٠

ويطرد هــذا النماء فنرى فى القرن الثانى عشر مثل يوحنــا بن داود الأندلسى اليهودى ، وجيرار الكريمونى ٠ الذى ترجم وحده ما لا يقل عن (٧٤) أربعة وسبعين كتابا علميا ما بين صغير وكبير (٩) ٠

وأفلاطون النيفولى يترجم المعارف الاسلامية عن العربية والعبرية ٠ وآخرون غيرهم ٠

بل نرى للترجمة دوائر منظمة يؤيدها ملوك شهيرون فى نواح مختلفة من أوربا ، ففى صقلية ، ونابلى وطليطلة ،

---

(٧) سديو : خلاصة تاريخ العرب ص ١٦٤ ٠
الخورى عيسى أسعد : الطرفة النقية من تاريخ الكنيسة المسيحية ص ٢٠٩ ٠
(٨) أرتورو كاستيليونى (Arturo Castilioni) الأستاذ بجامعة بادوفا كاتب مادة قسطنطين الافريقى فى دائرة المعارف الايطالية الحديثة ٠
(٩) كارلو الفونسو نللينو (Cairo Alphonso Nallino) الأستاذ بجامعة بادوفا : وعضو المجمع الملكى للغة العربية : كاتب مادة ـ جيراردو ـ من دائرة المعارف الايطالية الجديدة ٠ (Gherardo)

وقشتالة ، وفرنســـا ، تقام تلك المعــاهد ، ونرى ملوكا أقوياء ، يبذلون جاههم ومالهم لحماية تلك الحركة وزيادة نشاطها ، على نحو ما كان في قصور ملوك الشرق المسلمين ·

ومن أكبر هــؤلاء الملوك الغربيين وأجلهم ، فردريك الثاني هو هنشتاوفن الالمــانى امبراطور الدولة الرومانيــة المقدســة ، وحاكم صقلية · وألفونس الحــكيم القشتالى ، فتحت اشرافهما اشــتغل مترجمون من أنحــاء مختلفة في أوربا · وكان « سكوت ميخائيل الاسكتلندى » ، في حاشية فردريك المذكور ، يشرف على الترجمة الجديدة لأرســطو ، وتفاســير فلسفته الاســلامية من اللغة العربية ، الى اللغة اللاتينية (١٠) مع آخرين من جنسيات مختلفة ، كما كان الحـــال كذلك تحت اشراف ألفونس الحكيم في القـــرن الثالث عشر نفسه ·

وأعاد الغرب تاريخ الملوك العلماء في الأمة الاسلامية · فكان ألفونس الحكيم يصحح بنفســه ما يترجم الى اللغــة القشتالية (١١) ، ومنفريد بن فردريك هوهنشتاوفن يترجم بنفسه (١٢) ·

ولا نملى للقلم في وصف حركة هذا النقل لئلا نبعد عن موضوعنا ، فنكتفى بأن نقول في اجمال ان الثقافة الاسلامية كانت منتشرة في جميع أنحاء أوربا في القرن الثالث عشر الميلادى (١٣) ·

---

(١٠) دائرة المعارف الانجليزية مادة سكوت · (Scot)

(١١) ماريو كاسيلا (Mario Casila) الأستاذ بجامعة فيرنسة الايطالية كاتب مادة « الفونسو الحكيم » في دائرة المعارف الايطالية الجديدة ·

(١٢) مادة منفريد من الدائرة الايطالية الجديدة ·

(١٣) فيورلتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٧٧ ـ وأن حركة الترجمة عن العربية في أوربا خلال القرون الوسطى لتستحق الدراسة المفردة وأرجو ان أصل من ذلك الى ما يكشف جليا عن هذا الجانب من صلة الشرق بالغرب ، كما أهيب بالباحثين أن يعنوا بالنواحى المختلفة من انتشار الثقافة الشرقية بعامة ، والاسلامية بخاصة في أوربا لهذا العهد ، استيفاء لتاريخنا ، وها هم أولاء الباحثون الأوربيون قد بدءوا يتولون ذلك بشيء من الانصاف وحب الحقيقة ·

وانما يجب أن نتولى بالتفصيل نقطا ثلاثا ، تمس موضوعنا مسا قويا تلك هى :

(١) معرفة الأوربيين للغة العربية ، لغة المعارف الاسلامية والدين الاسلامى ·

(٢) الاتصال الفلسفى بين أوربا والأمم الاسلامية ، لما كان هناك من صلة قوية بين الفلسفة والحياة الدينية فى تلك الأزمنة ·

(٣) معرفة الاوربيين للعلوم الدينية الاسلامية بخاصة ·

١ ــ اللغة العربية فى أوربا

٤ ــ لا شك أن اللغة العربية من أقرب الطرق لمعرفة الشئون الاسلامية علمية وغيرها ، فلا غرو اذا كان انتشار اللغة العربية فى أوربا مظهرا له قيمته فى درجة الاتصال بين الاسلام والمسيحية العربية ·

ولقد رأينا فى الفقرات السابقة ، أن الأمم المجاورة للدول الاسلامية تكاتبها بالعربية شعرا ، على مثل ما فى قصيدة نقفور « فصل ١ ــ فقرة ٧ » · ونرى الأسبانيين جيران المسلمين فى الغرب ، قد يتخذون كتابا من العرب يكتبون عنهم بالعربية الى المسلمين فى الأندلس والمغرب(١٤) وكما نجد الاتصال الحربى بين الطرفين يدفع الى تعلم اللغة العربية ، فيبدأ الفرنسيون بتعلم العربية فى الحروب

---

(١٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٢٩ ــ طبعة بولاق اذ يروى أن الأذفونش كتب الى أبى يوسف يعقوب صاحب المغرب الذى كان قد جاء الى الأندلس ، رسالة من انشاء وزير له يعرف بابن الفجار ، ونصها :

« باسمك اللهم فاطر السموات والأرض صلى الله على السيد المسيح ، روح الله وكلمته ، الرسول الفصيح : أما بعد فانه لا يخفى على ذى ذهن ثاقب ، ولا ذى عقل لازب ، انك أمير الملة الحنيفية ، كما انى أمير الملة النصرانية ، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل واهمال الرعية ، واخلادهم الى الراحة ، وأنا أسومهم بحكم =

الصليبية ، ويدرسونها في أسبانيا على أهلها (١٥) • فكذلك نرى آن المناطق التى امتد فيها نفوذ العرب وتوطنهم « راجع الفصـــل الأول فقرتا ١ ، ٢ » كان أهلها يتعلمون العربيه بحكم هذا الاتصال ، اذ كانت تؤخذ منهم الرهائن الى البلاد العربية كما تؤخذ منهم الأسرى ، فيتعلم كل هؤلاء العربية من أهلها ، ويعودون بها الى بلادهم ، كما يتعلمها من قــد يعتنق الاسلام من أوربى هذه البلاد ، وكذلك يظل يتكلمها الى حين من يبقى من المسلمين فى أوربا أســيرا أو رقيقا ، أو يتنصر فى بعض تلك المناطق (١٦) •

وحينما قويت حركة التعلم والنقل العلمى التى سبقت الاشـــارة اليها » كان المتعلمون من الأوربيين فى البـــلاد الاســـلامية يتعلمون العربية ، كما كان يجيدها المترجمون للعلوم الاسـلامية ، ويعرفها دارسو تلك العلوم فى الغرب ، ومن هنا نسمع منذ عهد مبكر أن رجـــالا من ذوى الشـــأن الدينى أو العلمى أو السياسى ، كانوا يعرفون العربيـــة ،

= القهر وخلاء الديار ، وأسبى الذرارى وأمثل بالرجال ، ولا عذر لك فى التخلف عن نصرهم اذا أمكنتك يد القدرة • وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم ، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا ، لا تستطيعون دفاعا ، ولا تملكون امتناعا ، وقد حكى لى عنك ، انك أخذت فى الاحتفال ، وأشرفت على ربوة القتال وتماطل نفسك عاما بعد عام ، تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فلا أدرى أكان الجبن قد أبطأ بك ، أم التكذيب بما وعد ربك • ثم قيل لى انك لا تجد الى جواز البحر سبيلا ، لعله لا يجوز لك التقحم معها ، وهانا اقول لك ما فيه الراحة لك ، واعتذر لك وعنك ، على أن تفى بالعهود والمواثيق ، والاستكثار من الرهاب (جمع رهب : النصل الرقيق) ، وترسل الى جملة من عبيدك بالمراكب والشوانى ، والطرائد والمسطحات ، وأجوز بحملتى اليك ، فأقاتلك فى أعز الأماكن لديك ، فان كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت اليك ، وهدية عظيمة مثلت بين يديك ، وان كانت لى كانت يدى العليا عليك ، واستحقيت امارة الملتين ، والحكم على البرين ، والله تعالى يوفق للسعادة ، ويسهل الارادة ، لا رب غيره ، ولا خير الا خيره ان شاء الله تعالى » •

وقد سقت للقارىء الكتاب كله ليرى فيه شاهدا لقوة صلة أهل ذلك البلاط الافرنجى بالاسلام ، ومعرفة الكثير عن عقائده ، الى جانب ما استشهدنا عليه من مكاتبة الفرنج لجيرالهم المسلمين بالعربية •

(١٥) رينو : المصدر السابق ص ٢٣٢ من الترجمة العربية •

(١٦) رينو : المصدر نفسه ص ٣٣ من الترجمة العربية •

فمثلا نرى القسيس هرتموت Hert mot رئيس دير القديس جالو بفرنسا في اواخر القرن التاسع الميلادى كان يعرف العربية والعبرية (١٧) ، والبابا سلفستر الثاني كان يجيد العربية(١٨) ، والفيلسوف الشهير البرت الكبير كان يعرفها، كما كان يتكلمها ملوك أوربيون كفريدريك الثاني ،ورجار ملك صقلية ، وغيرهم •

وما نريد أن نحصي متكلمي العربية من ذوى الشأن فى أوربا ، ملوك ، وعلماء ، ورجال دين ، فهذا ما لا حاجة بنا اليه ولا يد لنا به • وانما نكتفى فى الدلالة على درجة انتشار العربية فى أوربا ، خلال القرون الوسطى ، بما يقوله ، «روجر باكون» في القرن الثالث عشر : «ان الفلسفة مأخوذة عن العرب فلا تفهم كما يجب الا اذا عرفت اللغة التى أخذت منها (١٩) ، والعبرية واليونانية لازمتان لفهم الكتب المقدسة ، وفلسفة أرسطو ، فالعربية لازمة لفهم ابن سينا وابن رشد » •

وكان باكون هذا يلوم الذين درسوا الفلسفة من المترجمات دون الأصول ، لا يستثنى من ذلك اللوم حتى القديس توما الأكوينى نفسه (٢٠) •

فهذا كاف للقول فى طمأنينة ، بأن اللغة العربية كانت منتشرة فى البيئات المثقفة فى أوربا ، خلال تلك العصور •

***

٥ ــ وقد قامت فى أوربا حركة مقاومة للاسلام ، كانت حربا صليبية معنوية ، تصدت لمقاومة الاسلام بأساليب علمية ، من بينها تعلم العربية ، فكان « ريموند لول » ، الذى يحسن اللغة العربية، يجعل من الدراسات الشرقية أداة

---

(١٧) رينو : المصدر السابق • ص ٢٣٢ من الترجمة العربية •

(١٨) الخورى عيسى أسعد : الطرفة النقية ص ٢٠٩ •

(١٩) الفريد جيوم : تراث الاسلام ص ٢٤٤ من الأصل ، ص ٢٣٥ ج ١ من الترجمة العربية •

(٢٠) فيوريتتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٣٠٣ ــ ٣٠٤ •

حرب صليبية هادئة ، سلاحها روحى خالص ، فيؤسس سنة ١٢٧٦ م كلية للرهبان فى ميرامار Miramar لدراسة اللغة العربيـة (٢١) · كما أسست أول مدرسـة عرفتها أوربا للدراسات الشرقية فى طليطلة على يد المبشرين ، وفيها كانت تعلم العربية (٢٢) ، كما كانت تعلم العبرية وغيرهـا من مواد تعين على اخراج مبشرين ضد الاسلام (٢٣) · ولعله لهذا الغرض من الحرب المعنوية قد تقرر ايجاد كراس لدراسة اللغـات الشرقية من عربية وغيرهـا فى جامعات باريس ، ولوفـان ، وسـلمنقة ، فى أوائل القـرن الـرابع عشر الميلادى (٢٤) ·

فهـذه الحركات الايجابية والسلبية فى دراسـة اللغه العربية ، أعنى تعلمها لاقتباس المعـارف الاسـلامية ، أو لمحاربة الاسلام والتبشير بالمسيحية ، كانت هـذه الحركات كلها وصلا معنويا واضحا للغرب بالشؤون الاسلامية(٢٥) ·

★★★

٦ ـ واذا ما تحدثنـا عن اللغة العربية بأوربا لذلك العهد ، وأنها سبيل الاتصال بالثقافة الاسلامية ، فانه ليجب أن نذكر لغة أخرى سامية ، هى اللغة العبرية ، التى كانت شقيقة العربية تعاونا ، كما هى شقيقتها نسبا ، فعملت على حفظ الذخائر العلمية للثقافة الاسلامية ، باشتراك اليهود فى الميدان العقلى جنبا الى جنب مع المسلمين ، حين اطمأنوا

---

(٢١) ايرنست باركر : تراث الاسلام ص ٦٥ من الأصل ، و ١٢٤ ـ ١٢٥ ج ١ من الترجمة العربية ·

(٢٢) الفرد جيوم : تراث الاسلام ص ٢٧٢ من الأصل ، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١ ج ١ من الترجمة العربية ·

(٢٣) المصدر السابق نفسه ·

(٢٤) ايرنست باركر : كتاب تراث الاسلام ص ٦٤ من الأصل ، ج ١ ص ١٢٥ من الترجمة العربية ·

(٢٥) لم أر الاطالة بالاشارة الى ما كان من صلة قوية للغرب باللغة العربية وآدابها ، تلك الصلة التى تركت أثرها فى تطور الفنون الأوربية فى العصور الحديثة مما تجد غير قليل عنه فى فصل « الأدب » من كتاب تراث الاسلام : وكتاب فيكتور هيجو ، علم الأدب عند الفرنج والعرب ، للمقدسى وغيرها ·

في ظلال تلك الحضارة ـ ولا سيما في أسبانيا ـ ، فكانت لهم فلسفة اسلامية العناصر عربية النصوص ، وان كتبت حينا باللغة أو الحروف العبرية (٢٦) ٠

وقد كان لفلسفة اليهود المذكورة اثر عظيم على الفلاسفة الغربيين في العصور الوسطى (٢٧) ٠ كما ان اليهود قد حفظوا لأوربا الثقافة الاسلامية بترجمتها الى العبرية ، وكثيرا ما كانت الترجمة منها الى اللاتينية (٢٨) ، حتى لقد يضيع الأصل العربي بعض الأحيان ، ولا يبقى الا الترجمة العبرية فقط (٢٩) ، كما ترجمت اليهود بأنفسهم من العربية الى غير العبرية من اللغات الأوربية كالاسبانية مثلا (٣٠) ٠

ولقد نقل اليهود الثقافة الاسلامية نقلا فعليا الى أوربا ، حين هاجروا من اسبانيا الى الشمال ، لأسباب سياسية أو اجتماعية مختلفة ، ولا سيما هجرتهم الى جنوبي فرنسا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي (٣١) ٠

وكانت هذه العبرية من اللغات التي شاع تعلمها في الغرب حينما استيقظت الأفكار ، وزعماء رجال الاصلاح كانوا يعرفونها « كهس » ولوثر وغيرهما (٣٢) ٠

٢ ـ الاتصال الفلسفي بين الغرب والأمم الاسلامية

٧ ـ الفلسفة بفطرتها صورة واضحة للاتجاه الفكري ، ديني وغير ديني ، والفلسفة في تلك العصور الوسطى كانت

---

(٢٦) دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة ابن ميمون ـ وجورج مور في كتاب تاريخ الأديان ج ٢ ص ٣٩٨ ٠ من الترجمة الايطالية ٠

(٢٧) المصدران السابقان ٠

(٢٨) فيورينتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٥٤ ٠

(٢٩) دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة فارابي ٠

(٣٠) دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة ابن أبي الرجال ٠

(٣١) تعليق رقم ١ على هامش ص ١٧٤ ج ١ من الترجمة العربية لدائرة المعارف الاسلامية ٠

أشد عناية بالجانب اللاهوتى ـ ميتا فيزيقا ـ • ونستطيع القول بأن فلسفة تلك العصور الوسطى كانت أسلاميه القيادة ، فلم يلبث الغربيون بعد ما ذكرنا من اتصالهم بالاسلام ، أن عرفوا ودرسوا فلاسفة الاسلام جميعا من شرقيين وغربيين : كالكندى ، والفارابى ، وابن سينا ، والغزالى ، وابن رشد ، وغيرهم (٣٣) •

ومن المهم أن تلحظ سرعة اتصال الغرب بمن كان من هؤلاء المفكرين فى أقصى الشرق ، فالغزالى المتوفى سنه ١١١١ م قد ترجم فى السنين الأولى من القرن الثانى عشر ـ حوالى نصفه (٣٤) ـ الى اللاتينية •

وهكذا ظهر التأثر بهؤلاء الفلاسفة المسلمين فى تفكير المفكرين الغربيين فى أقصى أنحاء أوربا ، فكان يوحنا دنس سكوت الاسكتلاندى ، ق ١٣ ـ ١٤ يستوحى تأثير الارسطالية الاسلامية ، وبخاصة من ابن سينا (٣٥) ، كما يتأثر بابن سينا نفسه فى ألمانيا الفيلسوف ايكهارت(٣٦)•

واسكندر الهاليسى الذى درس وعلم فى باريس ، يعتمد على الشروح العربية لابن سينا ، وابن رشد (٣٧) • وألبرت الكبير يتأثر بابن سينا ، حتى ليقول رينان ، انه مدين بكل شىء لابن سينا ، كما أن القديس توما الأكوينى فى ايطاليا

---

(٣٢) نقرأ فى كتاب قصة لوثر المطبوع فى فالته سنة ١٨٤٠ ما نصه « ••• وبناء على ذلك فوض لراهب من الدومينيقيين اسمه « هكستراتن » ، أمر سلطانى بأن يبيد ويحرق جميع ما يطلع عليه ويجده من الكتب العبرانية ، وقرر بعض علماء الكلام بمجلس المشورة فى باريس أنه ما دام الناس يرخص لهم فى تعلم اللغتين اليونانية والعبرانية ، فلا أمل ببقاء الدين » ـ ص ١٣ ، ١٤ من النسخة المحفوظة بدار الكتب المصرية •

(٣٣) الفريد جيوم : تراث الاسلام ص ٢٥١ ، ص ٢٥٤ ، من الأصل ج ١ ص ٢٥٣ ، ص ٢٣٩ من الترجمة العربية •

(٣٤) فيورنتينيو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٧٠ •
الفريد جيوم : تراث الاسلام ص ٢٤٦ من الأصل ، ص ٢٣٩ ج ١ من الترجمة العربية •
(٣٥) جورج مور : تاريخ الأديان • الترجمة الايطالية ج ٢ ص ٣٠٠ •
(٣٦) جورج مور : تاريخ الأديان • الترجمة الايطالية ج ٢ ص ٣٠٥ •
واقرأ شيئا عن ايكهارت هذا فى هامش الفصل الثالث بعد •
(٣٧) فيورينتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٧٨ •

مدين كذلك لابن رشد (٣٨) وهو فى الوقت نفسه ممن تأثر بالغزالى (٣٩) ٠

★★★

وعلى غرار هـذا أثرت الحركة الاسـلامية فى مقاومة الفلسفة على متيلتها فى الغرب ، وترك طابع الغزالى العملى والدينى ٠ اثرا على الباحثين النصارى من اللحظة الاولى ، التى امكن لكتاباته فيهـا ان تقرا ، ولا يزالون يمنحونهـا دراســة دقيقة (٤٠) ، واستعمل المسيحيون فى كثير من رسائلهم العلمية براهين الغزالى على مسائل لاهوتية (٤١) ٠

وكذلك تأثرت الحـركة الصوفية فى أوربـا بعناصر اسلامية (٤٢) ٠ ولسنا نطيل هنا فنتولى شرح شىء من ذلك فى تفصيل ، بل حسبنا آن نؤيد دعـوى الصلة والتأثر ، متوخين الرجوع الى عبارات العلماء الغربيين ، تمهيدا لمـا سنشرحه من نقط التأثر الخاصة بموضوع الاصلاح الدينى المسيحى فيما يلى ، محددين تلك المسائل هناك ٠

٣ ـ معرفة الأوربيين بالعلوم الدينية الاسلامية

٨ ـ ان ما أسلفناه من أمر انتشار العربية فى أوربا ، وأخـذ الفلسفة والعلم عن مصـادر اســلامية ، ليؤهل فى

---

(٣٨) جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٦١٨ ٠

(٣٩) أ ٠ جيوم : المصدر السابق ص ٢٧٣ من الأصل ٠ ج ١ ص ٣٠٣ ، من الترجمة العربية ٠

(٤٠ ٤١) أ ٠ جيوم : المصدر السابق ص ٢٧٣ من الأصل ـ ج ١ ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ من الترجمة العربية ٠

(٤٢) جـ ٠ مور : تاريخ الأديان ـ ترجمة ايطالية ـ ج ٢ صفحات ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٥ ـ وواضـح أننـا لا نقصـد هنـا الى دعـوى أن للعرب أو المسـلمين فلسفة خاصـة لهـا شخصيتها المستقلة أولا ، مما قد يختلف الرأى فيه ، وانما نقصـد الى بيان الاتصال العقلى والاستفادة مما كان العرب يقومون اذ ذاك على رعايته من علم وفلسفة ٠ لنمهد ببيان هذا الاتصال طريق الانتقال وتسرب الأفكار من البيئات الاسلامية الى البيئات الاصلاحية ، على ما سنتولاه تفصيلا فيما بعد ٠ وليس هناك من يشاحنا فى هذا القدر حتى أقسى المتطرفين فى انكار ما للعرب من فلسفة خاصة ، أو زيادة أكسبوها للمعرفة الانسانية ٠ فان لهم على أى فرض تلوينا اسلاميا ، واتجاها فى تطبيق الفلسفة على الاسلام أو التوفيق بينهما ، ان ينكرا عليهما ٠

غير شك للاتصال بالمعارف الدينية الاسلامية ، ولا سيما في تلك الأعصر التى كان الطابع الدينى يسود الحيـاة فيها ، بل كان آبرز ما يهيمن عليها ٠

على أنا نملك فوق ذلك أخبارا عن محاولات ايجابية في أوربا للاتصال بالمعارف الدينية الاسلامية ، اتصالا خاصا ومباشرا ، ونقلها الى الغـرب ، تعريفا له بهـا ، لأغراض مختلفة ٠

ففى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى ، ترجم القرآن الى اللاتينية ، رغبة فى نقدة ، ومناقشته ، اذ أن بطـرس الفينرايلى Pietro il Vinrapily الذى كان رئيس دير كولونيا بفرنسـا منـذ سـنة ١١٢٢ م قد دعا الى ذلك ، فقام بتلك الترجمة ، روبرت الراتينى Roberto deretine ، وهيرمان الفينرايلى Herman de Dalmatie ، وتمت الترجمة فى سنة ١١٤٣ م ، وهى الترجمة التى طبعت فيما بعد ذلك بأربعـة قرون فى مدينة بازل « سنة ١٥٤٣ م (٤٣) » ٠

وعلى ذكر الحديث عن ترجمة القرآن فى الغرب ، نذكر أننا نجـد خبرا عن ترجمته كـذلك الى اليونانية فى وقت متأخر ، عن زمن الترجمة اللاتينية ، ولكنه على كل حال قبل الحركة الأخيرة فى الاصـلاح ، اذ يروى أن ذلك قد تم فى القرن الرابع عشر الميلادى على يـد يوحنا كانتا كوزينى ، الذى كان امبراطور الدولة الرومانية الشرقية فى بيزنطة ، باسـم يوحنا السـادس ، ثم ترهب ودعى يوسف ، ويذكر كذلك أن راهبا يدعى ملاتيوس ، كان مسلما ثم اعتنق الدين المسيحى وترهب ، وقد عاونه فى هذه الترجمة (٤٤) ٠

---

(٤٣) مادة قرآن فى دائرة معارف الأديان والأخلاق ٠

ولويجى بونيلل فى مقدمة ترجمته الايطالية للقرآن المطبوعة سنة ١٩٢٩ ص ١٥ ٠

وقد ذكر الأستاذ ترند فى كتاب تراث الاسلام ٠ ج ١ ص ٥٥ من الترجمة العربية ـ روبرت هذا أحد مترجمى القرآن ، بين من زاروا مدرسة طليطلة ، وسماه « روبرت الانجليزى » (Ropertus Angelicos)

(٤٤) الدرة النفيسة فى شرح حال الكنيسة ص ٣٢١ ٠ وقد أشرنا فى الفصل الأول فقرة ٩ ، الى خبر هذا الراهب المتنصر ، كما ذكرنا فى فقرة ١٠ من هذا الفصل ، خبر مصاهرة السلطان أورخان العثمانى لهذا الامبراطور ٠

بل نجد أن القرآن نفسه لم يكن يعرف في اوربا بتراجمه غير العربية فقط ، وانما كان يقرؤه قسيسون بالعربية في اوربا ، خلال القرن الثالث عشر ، على ماورد في احدى رسائل القسيس ريكولدو الايطالى المتوفى سنه ١٣٢٠ م (٤٥) ·

★★★

٩ ــ وبين اللاهوتيين المسيحيين في الشرق والغرب ، رجال عرفوا الاسلام معرفة غير يسيرة الشأن ، ولا سادجه فاطلعوا على معارفه الدينية وناقشوا فيها ، وجادلوا اهلها ، فمن هؤلاء في الشرق مثلا : يوحنا الدمشقي ــ البطريق يحيى ــ الذى عاش في القرن الثامن الميلادى ، هو وأبوه فى قصر الخليفة الأموى « عبد الملك بن مروان » وله في جدل المسلمين أخبار مأثورة ، كما صنف في ذلك ، وهو يعتبر أول منظم لعلم اللاهوت (٤٦) ·

ثم تلميذه « تيودور أبو قرة » ــ ق ٨ · م أيضا ــ وهو اللاهوتى الضليع ، المتمكن من معرفة اليونانية والعربية ، والذى خلف ثلاثة وأربعين تأليفا عن الاسلام ، واليهودية ، والمذاهب المسيحية (٤٧) ·

وغير هؤلاء كثيرون من رجال الدين العارفين بالاسلام فى الشرق ، والمؤلفين في الشئون الاسلامية · والذين لا نشك أنه كان لكتابتهم أثر في الكنيسة الغربية ، لعدم انقطاع الصلة بين الكنيستين في ذلك العهد على ما أشرنا اليه سابقا ·

على أنا لا نطيل الحديث عن هؤلاء الشرقيين ، بل نعود الى الغرب نفسه ، فنرى أن بطرس الفينرابلى الداعى الى

---

(٤٥) هنرى دى كاسترو : الاسلام خواطر وسوانح ص ١٥٦ من الترجمة العربية ·

(٤٦) الخورى عيسى أسعد : كتاب الطرفة النقية ص ٢٠٠ ــ ٢٠١ ج · مور : كتاب تاريخ الاديان : ج ٢ ص ٢٥٧ ·

(٤٧) الخورى عيسى : المصدر السابق ــ ص ٢٠١ ·

ترجمة القرآن اللاتينية ، يزور أسبانيا سنة ١١٤١ ، فيدرس هناك أصول النظريات الاسلامية الدينية ، ويكتب بحثا فى نقد اليهودية والاسلام (٤٨) ٠

ولقد اشرنا قبل الآن ـ الفصل الاول فقرة ١١ ـ الى ما كان من الرغبة المضطرمة لريموند لول فى تبشير المسلمين بالمسيحية ، فكان له من المعرفة بالعربية واللاهوت الاسلامى حظ عظيم ، ولا ينكر الباحثون الغربيون صلته بالمصادر الاسلامية واثرها فيما ترك من مؤلفاته ، ولا يخامرهم شك فى اقتباسه قسما عظيما من لاهوته عن العرب ، كما تنم عن ذلك رسالته عن أسماء الله المائة (٤٩) ٠

و « لول » هذا هو الذى أشرنا سابقا ـ فصل (٢) فقره (٥) ـ الى استعماله اللغة العربية والمعارف الاسلاميه أداة لحرب صليبية معنوية ، وأنه أسس لذلك فى القرن الثالث عشر مدرسة تبشيرية ، تخرج رجالا يحسنون ذلك الكفاح ضد الاسلام ، كما أشرنا هناك الى مدرسة المبشرين فى طليطلة لهذا الغرض عينه ، ونقول هنا ، انه كان من المتخرجين فى تلك المدرسة « ريموند مارتن » ـ ق ١٣ ٠ وكانت له معرفة بمؤلفى العرب ، ربما كانت منقطعة النظير فى أوربا بأسرها ، حتى فى العصور الحديثة ، ولم يكن يعرف القرآن وسنة الرسول فحسب ، بل كان يعرف كذلك كبار العلماء من رجال الدين المسلمين ، وعظماء فلاسفة الاسلام » (٥٠) ٠

تلك ظواهر من اتصال الغرب بالتفكير الدينى فى الاسلام ، والابحاث الاعتقادية عند أهله شرقا وغربا ، ظواهر تجعل الاتصال بين الدينين وثيقا قويا ٠

★★★

---

(٤٨) مادة Pierre le Venerapla le Grand Encici من دائرة المعارف الفرنسية ج ٢٦

(٤٩) أ ٠ جيوم : تراث الاسلام ص ٢٧١ من الأصل ٠ ج ١ ص ٣٠٠ من الترجمة العربية ٠

(٥٠) المصدر السابق ص ٢٧٣ من الأصل ـ ج ١ ص ٣٠١ من الترجمة العربية ٠

١٠ ـ ومع ما رأيناه من اطلاع الغرب على الدراسة الدينية الاسلامية ، نقف هنا وقفة خاصة ، لنشير الى عالم أندلسي كبير الخطر، مؤثرين أن نلفت النظر أولا الى ما يلحظه الباحثون الغربيون ، من أن أسبانيا الاسلامية كانت مرآة صافية يتجلى فيها شتيت المذاهب الاسلامية ، كما كانت أداة هامة في نقل تأثير العرب الى الغرب (٥١) ٠

وذلك العالم الذى نبتغي الاشارة اليه هو : أبو محمد علي ابن أحمد بن حزم الظاهرى ، المؤيد القوى للفكرة الظاهرية بالاندلس ، والذى نعتبر الناحيه المبتكرة فيه ، هي تطبيق أصول هذه الفكرة علي العقائد ، فلا يأخذ فيها الا بالمعنى الظاهرى للقرآن والاحاديث الموثوق بها ، وعلى هذا الاساس من البحث ، نقد الفرق الاسلامية نقدا شديدا ، كما كان يمثل أهل التوحيد الذين انتقضوا على التوسل بالأولياء ، ومذاهب الصوفية ، وأصحاب التنجيم (٥٢) ٠

هـذا العـالم ذو الآثـار الكثيرة ، والآراء القـوية ، والشخصية الواضحة ، لا أجد عنتا في القول بأن الغرب المتصل باللغة العربية ، والدراسات الاسلامية ، ـ وبخاصة في أسبانيا ـ قد عرفه واتصل بآثاره ٠

ولئن كنت لا أجد الشاهد النصي على هذا ، فاني أسوق لتأييد استنتاجي الاعتبارات الآتية :

١ ـ انه عاش في اسبانيا ، حيث كان الاتصال قويا جدا ، بين الغرب والآثار الاسلامية (٥٣) ٠ على ماقدمنا من بيان ٠

---

(٥١) راجع في هذا صفحات ٨٨ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ٢٧١ من ج ١ : تراث الاسلام الترجمة العربية ٠

(٥٢) أرندنك C-Van-Arendonac كاتب مادة « ابن حزم » في دائرة المعارف الاسلامية ص ١٣٩ ـ ١٤٠ من المجلد الأول من الترجمة العربية ٠

(٥٣) تقرأ في كتاب تراث الاسلام ـ ج ١ ص ٥٤ ـ من الترجمة العربية ما نصه : « وقد استغرق تأثير الاسلام كل مرافق الحياة في اسبانيا في القرن العاشر ٠ فلما سقطت طليطلة انتشر هذا التأثير حتى شمل بقية أوربا ، ذلك أن هذه الأخيرة كانت قد أصبحت =

٢ ـ انه أحرز حظا عظيما من الشهرة ، وكانت له آثار قيمة ، كما كانت حياته مثار مقاومة عنيفة ، واضطهاد شديد فمثله ليس بالمغمور ، ولا بالمجهول .

٣ ـ بقاء أفكاره وآرائه ، واستمرار الخلاف حولها الى ما بعد وفاته بنحو قرن تقريبا (٥٤) ، فذلك خليق بلفت النظر اليه .

٤ ـ مقاومته العنيفة لليهودية والنصرانية على اختلاف مذاهبهما ، وكثرة مناقشته ورده على مواضع اختلافهما مع الاسلام ، واظهار مواطن الأخذ والرد فيهما .

فمثل بطرس الفينرابلى (٥٥) وهو رئيس دير ، اذا مازار اسبانيا بعد وفاة ابن حزم ببضعة وسبعين عاما ، على ما نقلنا آنفا من خبر ذلك (٥٦) ، وعرف هناك النظريات الدينية الاسلامية معرفة نقدية ، يكتب صاحبها بحثا فى نقد الاسلام واليهودية ، لا يكون من اليسير أن يجهل ابن حزم وآثاره ، بعد الذى قدمنا من ملاحظات .

ولسنا نذكر « بطرس » هذا الا على سبيل المثال ، فليس ببعيد أن كثيرين مثل بطرس قد ترددوا على اسبانيا : واتصلوا بالنظم الاسلامية كما هو معروف ، فلا علينا اذا ما رجحنا أن ابن حزم قد عرف فى الغرب ، وعرفت آراؤه الخاصة ، التى أشرنا اليها آنفا ، وسنشير اليها فيما بعد ، عند تناول مبادىء الاصلاح المسيحى تفصيلا .

نرجح معرفة الغربيين لابن حزم ، فهم الذين عرفوا من فى المشرق البعيد، سريعا وجيدا، كالغزالى وغيره على ما بيناه من قبل .

★★★

= شبينا فشبينا ، مركز الثقافة الاسلامية فى القرن الحادى عشر ، بعد أن خرب البربر قرطبة فى أوائل هذا القرن ، وبقى لها هذا المقام بعد الغزو المسيحى سنة ١٠٨٥ ... الخ » ، وابن حزم من أهل القرن الحادى عشر الميلادى ـ توفى سنة ١٠٦٤ م ـ .

(٥٤) اوندنك : المصدر السابق ص ١٤٣ من الترجمة العربية .

(٥٥ ، ٥٦) انظر الفصل الثانى فقرة ٨ .

١١ ــ ولعل من خير ما نتم به اعــداد ذهن القــارىء للحديث التفصيلي عن تاثر مصلحى المسيحية بالاسلام ، أن نلفت النظر الى ذلك الاتصال بين الشرق والغرب ، ودينيهما، في البيئة الالمانية بخاصة ، اذ هي التى كانت ميدان معارك الاصلاح العملي للمسيحية ، في دوره التنفيذى ٠

ففي حركة نقل العلم الاسلامى الى أوربا ، قد رأينا ان ناصرها الاكبر ، انما هو الأمبراطور الملحد ، فردريك الثانى هوهنشتاوفن الألمــانى ، الذى يعرف تاريخ الكنيســة أثر صراعه وصراع أسرته ، وما لحق البابوية بسبب ذلك من أضرار ٠

وميــول هـــذا الامبراطور ، الشرقية العربيــة ، بل الاســلامية ، كانت مثلا غريبــا فى أوربا ، في العصـــور الوسطى ، بل فى هــذه العصور الحديثة أيضا ، فلقد آثر الثقافة العربية على الثقافة اليونانية ، وظهر التأثير العربى فى تربيته وفى ميوله الشـخصية والطبيعية ، وفى علاقاته بالعالم الثقافى الشرقى ، ولعظم التأثير العربى عليه ، كان يلقب « السلطان المعمد » (٥٧) ٠ ومنذ أعوامه الأولى كان يحيا على أسلوب عربى ، ويألف العادات العربية ، وقد أنشأ من عهــد زواجه الأول مقاصير للسيدات ــ يسميها الكتاب الغربيون حريمــا (٥٨) ــ وعلاقاته الودية مــع الشرق ، ولا سيما مصر ، وتونس ، مما يلذ تتبع بحثــه ويكشف عن درجة تغلغل روح الشرق فى أوربا ، خلال العصور الوسطى ٠

ثم نرى أن والــدة ألفونس الحـكيم الذى هــو ضريع فريدريك الكبير فى هذه الرغبات الشرقية الاتجاه ، والذى عمل بجد على نقل الثقافة الاسلامية الى أوربا ، نرى أن والدة

(٥٧ ، ٥٨) رافاييل مورجن Raffaello Morghen أستاذ تاريخ القرون الوسطى بجامعة روما ــ فى مادة فردريك الثانى هوهنشتاوفن ٠ دائرة المعــارف الايطالية الجديدة ٠

الفونس هـــذا انمـــا هي أميرة ــ سفيفيا ــ المقاطعــة البافارية (٥٩) ، التي منها فردريك الثاني وأسرته •

كما نرى أن الفيلسوف الشهير ألبرت الكبير (٦٠) يمت بصلة واضحة الى فردريك الثاني أيضا ، وليس الفيلسوف الا ابن أحد أصدقاء هذا الامبراطور نفسه •

وكذلك نجد أن القديس توما الأكويني ، الفيلســوف اللاهـــوتي (٦١) ، انما هـــو ابن أحـــد اقارب أسرة هـــذا الامبراطور ــ هوهنشتاوفن ــ أيضا • وكلا الفيلسوفين قد أصاب حظه من معرفة الثقافة الاسلامية والتأثر بها ــ انظر فصل ٢ فقرة ٧ ــ •

ومن كل هـــذه الشواهد نقدر صلة البيئة الألمـــانية ، بالثقافة الاسلامية والمؤثرات الاسلامية ، ونرى اثر تلك البيئة يظهر في قشتالة ، بأقصى الغرب الجنوبي في اوربا ، كما يظهر في ايطاليا جنوبا •

على أنا نـــرى في القرن التالي لمـــا سبق ــ أي القرن الرابع عشر الميلادي ــ أن بافاريا هذه نفسها ، هي المعقـــل لحمـــاية أعداء الســـلطة الكنســـية ، الذين هم من أنصـــار الفلسفة الرشدية ، وأحـــرار الرهـبـــان الفرنشيسكانيين ، اذ يحمي بلاط لويس ملكهـــا مثـــل : مارسيليودي بادوفا الرشـــدي الشهير ، وعـــدو الكنيسة كمـــا يحمي « أوكام » الفيلســـوف الفرنشيسكاني ــ الذي سنرى علاقته الفكرية بلوثر ــ وأوكام هـــذا هـــو الذي قـــال للامبراطور كلمته

---

(٥٩) مادة ألفونس الحكيم في دائرة المعارف الايطالية •

(٦٠) البير الكبير « ١٢٠٥ ــ ١٢٨٠ م » فيلسوف مدرسي وراهب دومينيكاني ، واسع الأطلاع حتى لقد اتهم بالسحر ، كجربرت سلفستر تلميذ العرب ، وقد قدمنا انه كان يعرف العربية •

(٦١) القديس توما « ١٢٢٥ ــ ١٢٧٤ م » أشهر تلامذة ألبرت الكبير ، ونسبته « الأكويني » الى آكوينو ضاحية نابلي ، وهو راهب دومينيكاني أيضا ، منحه البابا لقب قديس ، ولقبه بابا آخر بعد ذلك « بالمعلم الملائكي » •

التاريخية الشـــهيرة « دافـع عني بسيفك أدافـع عنـك بقلمي » (٦٢) •

وفي هذه البيئة الألمانية قد راينا التأثير الاسلامي يصل الى « ايكهارت » ـ انظر فصـل ٢ فقـرة ٧ ـ وسنرى في الفصل التالي ، كيف يظهر هـذا التأثر في جماعة « اخـوه وأخوات الفكر الحر » في ألمانيا العليا ، وفي سويسرا ، كما سـنرى أثـر « ايكهارت » المباشر في آراء الاصــلاح البروتستانتي •

من كل هـذا يتجلى للقارىء التأثير الاســلامي الذي أوضحنا قوته في أوربا بعامة ، وأنه كان واضحا قويا في البيئة الجرمانية ـ أي الميدان الأخير للاصلاح ـ •

★★★

١٢ ـ الى هنـا قد بينـا مظاهر الاتصــال المادي ، والاتصــال المعنوي ، عقليا ، واعتقاديا ، بين الاســلام ، والمسيحية في الغـرب ، بيانا يحق لنا بعـده أن نقـول : اننا قد دللنا به على الطريق الناهج السوي لانتقال ما انتقل من أفكار وآراء ، حتى ليحق لنا بعد هذه المقدمات أن نتصدى لبيان النتائج •

---

(٦٢) فيورينتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٩٨ •

الفصل الثالث

من نتائج الاتصال

أ ــ نتقدم مطمئنين بعد الذى أينا من طرق الانتقال ، ونواحي التأثر ، وعوامل التأثير ، فنشرح ماترتب على هذا كله من نتائج عامة فى الحياة الدينية ، والعقلية الأوربية ، من حيث مظهرها في تدين أهلها ، وفهمهم للدين ؟ ثم ماترتب على هذا كله من نتائج خاصة فى الاصلاح المسيحى نفسه ، وآراء القائمين به ، وما دعوا اليه من أفكار ، وناضلوا فى سبيله من مبادىء ، عساهم قد تأثروا فيها بالاسلام ٠

نريد أن نبين ما تأثرت به ــ بصفة عامة ــ الحياة العقلية ، والحياة الاعتقادية ، والعلاقة بين المسيحى والكنيسة الكاثوليكية وما الى ذلك ، خلال القرون الوسطى ، اذ الصلة بالشرق والاسلام وثيقة ٠

كما نبين ما تأثرت به ــ بخاصة ــ حركة الاصلاح المسيحى نفسها ، تلك الحركة التى عملت فيها أجيال متعددة ، وطبقات من الناس ، منذ القرن الثانى عشر الميلادى الى القرن السادس عشر (١) ٠

---

(١) ليس بدعا من الرأى التاريخي ، أن ننظر الى أصول الاصلاح البروتستانتى هذا النظر البعيد ، بل هو الذى تتطلبه الدقة التاريخية ، وتؤيده السنن الاجتماعية ، على أن الكتاب عن تاريخ المسيحية قد صرحوا بهذا حتى جعلوا الاصلاح اصلاحين : الأول والثانى ٠ ومن هؤلاء « ايرنستو بونايوتي » فى كتابه « معالم تاريخ المسيحية Pietre Miler nellea Storia del Cristianesimo (problemi d'aggi) وهو الحلقة الثامنة من مجموعة « مسائل اليوم »

على أنا حين نفسر هذا الاتصال ، وذلك التأثير ، لانزعم أنه هو وحده الذى خلق حركة الاصلاح المسيحى ، وأنه سببها الأول والأخير ، بل نقدر ماهنالك من أسباب وعوامل اجتماعية ، ودينية ، وغيرها ، قد عملت عملها ، وتركت أثرها ، ودفعت الحياة الى ذلك الاتجاه ، فلفتتها الى النواحى العقلية والدينية ، التى قربها لها ، وقدمها بين يديها ، ذلك الاتصال السالف بالشرق الاسلامى ٠

فمقصدنا العلمى ، انما هو القاء الضوء الكافى على الجانب التاريخى من اتصال الدينين ــ المسيحية والاسلام ــ ببيان هذا الاتصال وأثره ، تاركين ماعدا ذلك من مؤثرات أخرى سببت ظهور الاصلاح الدينى وتمامه ، لاننا لا نؤرخ الاصلاح تاريخا شاملا ، وانما نقصد الى بيان هذا العنصر من أسبابه فحسب ٠

(أ) الآثار العامة

٢ ــ كانت مظاهر هذا التأثير العامة فى حياة المسيحية بالغرب هى :

(أولا) الغض من سلطة الكنيسة ، والحد من سيطرتها على الحياة : ولعل هذا الغض من السلطة الكنسية قد بدأ منذ وقت مبكر فى الشرق ، بسبب انتشار الاسلام ، اذ دخلت فى

عقد الكاتب المذكور فى كتابه هــذا فصلين : أحدهما عنوانه : الاصــلاح = الأول ، والآخر عنوانه : الاصلاح الثانى

وبدأ الأول بالحديث عن الفالدية فى القرن الثانى عشر الميلادى ٠ ومن أجل ذلكلا أجد تكلفا فى التفسير التاريخى الذى سرت عليه هنا فى فهم اصلاح المسيحية ٠ ولا أظن أن فى هذا الاتجاه تحيزا ما ٠ وليس يؤثر فى صحة هذا النظر التاريخى أن تعد طلائع الاصلاح الأول ، وبوادره القديمة الحادا زيغا ، عند الكتاب الكنسيين فى تاريخ المسيحية ، فان البحث العلمى لا يجزع من مثل هذا ، ولا يتأثر به ، ومثله مما تختلف فيه النظرة = عقد الكاتب المذكور فى كتابه هــذا فصلين : أحدهما عنوانه : الاصلاح الأول ، والآخر عنوانه : الاصلاح الثانى

حمايته كنائس شرقية تمتعت بتساهل المسلمين ، فوجدت الفرصة لترويج آرائها الدينية ، التى كانت تحتسب عند الكنيسة المحافظة بدعا ، فثغرت بذلك قوة الكنيسة ، وأضعفت تماسكها (٢) .

ثم كانت الحروب الصليبية ، التى أن أثارتها حمية قوية ، فقد كانت نتيجتها بعد أن اتصل الشرق بالغرب ، اتصالا قويا ، أن خمدت تلك الحمية ، وهدأت حدتها ، فلم ينته القرن الثاني عشر ، ويبدأ القرن الثالث عشر حتى همد ذلك الحماس ولم يعد يحرك القلوب الأوربية ، فوقف تدفقهم على الشرق بالكثرة الأولى ، وتغير نظرهم للمسلمين وتقديرهم لهم ، حتى انتهى الأمر أخيرا الى تحديد سلطة الأفكار الدينية المطلقة على عقولهم(٣) والاقلال من سيطرتها على أفئدتهم .

★★★

٣ ـ ثانيا : تحرير العقل ؛ وقد كان هذا التحرير الخطوة الأولى ، والسبب الفعال لما أشرنا اليه من تحديد السلطة الكنسية .

تم هذا التحرير بتأثير عوامل مختلفة ، كهذه المعارف العلمية المتنوعة التي اتصل يها الغربيون ، وكان للشرق فضل الهداية اليها ، وكالحركة الفلسفية التى ذكرنا علاقة الغرب فيها بالشرق ، والفلسفة دائما تعطى العقل قوة الشعور بنفسه ، والاحساس بوجوده .

ولقد مرت الفلسفة بأدوار مختلفة فى علاقتها بالدين

---

(٢) الى هذا المعنى يتنبه مؤرخو الأديان من الغربيين ، راجع تاريخ الأديان لمور فى ترجمته الايطالية ج ٢ ص ٢٥٧ .

(٣) جيزو . تاريخ الحضارة . السابق ذكره . ص ٢٦١ ، ٢٦٤ من الترجمة العربية .

من مخالفة ، وتوفيق وغير ذلك حتى كان مصيرهـا التحرر التام من سيطرته (٤) ·

واذا ذكرنا الفلسفة وعملها في تحرير العقل ، فمايمس موضوعنا اقوى المساس تلك الملاحظة التي يذكرها رينان في دراسته لفلسفة ابن رشد ، وهي :

« أن الرهبان الفرنشيسكانيين كانوا أنصـارا اقوياء للفلسفة الاسلامية ، ومبادىء ابن رشـد في اوربا (٥) · اذ نذكر أن هؤلاء الفرنشيسكان كانوا بحريتهم العقلية من أقوى المقاومين للسلطة الكنسية ، كما سنرى الامثلة الكثيرة لذلك فيما يلي ، حتى لنستطيع أن نقـول في طمأنينة ، ان الصراع بين الكنيسة والحرية العقلية ، في القرون الوسطى ، كان صراعا بين الكنيسة والفلسفة الاسـلامية مباشرة ، أو بالواسطة ، كما يشهد بذلك تاريخ الفلسفة الرشـدية في أوربا ·

★★★

٤ ـ وحين نتكلم عن الصراع بين الكنيسـة والحـرية العقلية ، نستطيع أن نجـد الصلة غـير الخفية بين حركات التجديد في حياة الكنيسة ، أو حركات الخروج على الكنيسة ،

---

(٤) يلاحظ مؤرخو الفلسـفة ، أن الفلسـفة المدرسية ، قد كان مصيرهـا هو مصـير الحروب الصـليبية ، فكما بدأت هـذه الحروب بالرغبـة في تخليص قبر المسيح من يد الكفار ، فانتهت الى خلق التجارة الواسعة ، وتنمية الرفاهية الانسـانية ، وهكذا أخذت الفلسفة المدرسية في حمايه العقيدة على يد « البرت الكبير » « وتوماس الاكويني » ، فانتهت باحياء حركة عقلية ترفض كل تدعيم للعقيدة أو حماية لها ·

راجع فيورينتينو في خلاصـة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٩٧ ، فقرة ١٢٢ بتصرف يسير ·

(٥) فرح أنطون : ابن رشد وفلسفته ص ٧٣ · ونحن نسوق هذه الاشارة لا ننسى عداوة مثل « ريموند لول » للفلسفة الرشدية ، لقوة تعصبه ودعوته الى انشاء جمعية عسكرية كبرى للسعي الى اسقاط الاسلام ، ولكنه مع ذلك ، كان واسع الأفق · جعل معرفة الاسلام والعربية عدته في رحلاته التعصبية ضد الاسلام ، الذي طاف أوربا ، محرضا للملوك والباباوات فيها على حرب صليبية ضده . ولعلنا نشهد اليوم هذه الظاهرة في استعانة الشرق بمعارف الغرب حين يكافحه وللحياة نواميس وسنن مطردة ·

وبين المؤثرات الاسلامية ــ من ثقافة وغيرها ــ اذ كانت هذه الحركات الدينية صدى التقدم العقلي ، واليقظة الروحية ، التى رأينا علاقتها فى الغرب ، بالمؤثرات الاسلامية ٠

ففى الماضى غير القريب ، نرى الفرقة الفالدية (٦) فى الثلث الأخير من القرن الثانى عشر ، تلك الفرقة التى كان ظهورها من الحركات القديمة ضد الكنيسة وحالتها الفاسدة فانتظمت مبادئها عناصر هامة ، مما قرره أخيرا الاصلاح البروتستانتى فى القرن السادس عشر (٧) ٠

ومما يلفت نظر الباحث فى حال هذه الطائفة انها نشأت فى جنوب فرنسا حيث امتد نفوذ الاسلام السياسى والروحى ، بل حيث توطن المسلمون فعلا ــ أزمنة غير قليلة ــ على ما بيناه فى « الفصل الأول » ــ وحيث عرف الفرنسيون الاسلام ، أو اعتنقه أشخاص منهم ، ثم حيث تجاور هذه المنطقة أسبانيا الاسلامية ، أقوى مصادر التأثير الاسلامى على أوربا ، وحيث كان يهاجر اليهود من أسبانيا حاملين آثار الثقافة الاسلامية ــ على ما أشرنا اليه كذلك فى الفصل الثانى ٠

أفليس ذلك كله مما تسهل معه ملاحظة أثر هذه الظروف المادية والمعنوية فى تفكير طائفة الفالديين هذه ، وحياتها ؟ ولو أنى لا أحب المضى هنا فى وصف هذا الأثر وتحديده ،

---

(٦) نسبة الى « بطرس فالدو » ، الذى كان تاجرا فى ليون ، وقرر أن الكنيسة الرومانية حائدة عن الانجيل ، وتجب اعادتها الى أصوله ، فتصدى لذلك ٠ ومن آراء هذه الطائفة : وجوب التعويل على الكتاب المقدس ، وأن الكتاب يتضمن كل ما يكفى للنجاة ، وأنه لا مقتضى للاستغاثة بالقديسين والاستشفاع بهم فى نوال النجاة ، كما يرون أن رياسة البابا يجب هدمها ٠٠ الخ ٠

واذا كان الكتاب الدينيون ينعتون هذه الشيعة بالمروق فان من المؤرخين من يقول : انه لو اعتمد البابوات هذه الطائفة كما اعتمدوا رهبنة الفرنشيسكانيين مثلا ، لكان « فالدو » يعد اليوم من القديسين ، بدل أن يحسب فى المبتدعين ٠ وقد أسلفنا القول فى أن ما يعد بالأمس مروقا ، يصبح فى الغد اصلاحا ٠

(٧) الدرة النفيسة فى شرح حال الكنيسة ص ٢٧١ ــ ٢٧٢ ٠

مكتفيا بالاشارة الى الآثار العامة ، والصلة غير الضعيفة بين الحركات الكنسية والبيئة الاسلامية •

★★★

وبين حركات التجديد التي أقرتهـا الكنيسـة ، نرى الرهبانيين العظيمتي الشأن في القرون الوسطى ، وهمـا الرهبـانية الفرنشيسكانية ، والرهبانية الدومينيكانية • تنسب أولاهما الى « فرنشيسكو الاسيسى » • الذى حدثناك عن رحلته الى الشرق ، ولقائه الملك الكامل ، يحاول تبشيره بالنصرانية ــ فصل ١ فقرة ١١ ــ ، فقـد كان لرحلته الى الشرق أثرهـا في تأسيس تلك الرهبـانية ، وبتجاربه في التبشير بسوريا والمغرب ، رجع يكرس نفسه لاعادة المسيحيين فى أوربا الى الحياة المسيحية الحقيقية (٨) •

وتنسب الرهبانية الثانية الى « دومينيكوس » الراهب الاسـباني ، مخترع ما يسـمى في الكنيسـة « بالفحص الشريف » ، الذى عرف فى التاريخ باسم ديوان التفتيش ، وقد كان أول ما قام منه فى مدينة طليطلة سنة ١٢١٦م •

وليس من الدقـة أن نغض النظر عن اسـبانية هـذا الراهب ، أو عما ظهر فى هذه الرهبانية ورجالها من ميـل مبكر الى العلم، وحسبانهم حسابا كبيرا للمعرفة والدرس(٩) فلاسبانيته بلا شك أثر فى هذا كله •

عـلى أنه قد ظهـر من الرهبانيتين كثير من المفكرين والفلاسفة الذين ذكرنا آنفا ، صلتهم بالبيئة الاسلامية مثل: ألبرت الكبير ، والقديس توما الأكوني من الدومينيكانيين : والاسكندر الهاليسى ، وروجر بيكون ، ودنس سكوت ، من الفرنشيسكانيين ، وغير هؤلاء وأولئك •

---

(٨) ج • مور : تاريخ الأديان ج ٢ ص ٣٠٩ • ترجمة ايطالية •
(٩) المصدر السابق ج ٢ ص ٣١١ •

وقد ذكرنا قريبا ملاحظة « رينان » عن علاقة الفرنشيسكان بالفلسفة الاسلامية وتأثرهم بها ·

ثم فيما بعد ذلك نرى فرقة مسيحية متطرفة فى التسامح ، كانت تقول بوحدة الوجود ، تلك هى فرقة « اخوة وأخوات الفكر الحر Fratellie sorelledel libero sperito التى ظهرت فى ألمانيا (١٠) العليا ، وسويسرا وتبدو لها علاقة بمبادىء الفيلسوف « أمالريكو دى بينا » الذى استقى آراءه من التيار الأفلاطونى الحديث فى الفلسفة الاسلامية (١١) ·

وهذه الطائفة الى جانب صوفيتها التى ذكرناها ، كانت تنفى كل ألوهية خاصة للمسيح ، الى غير ذلك من آراء تسامحية حرة ·

وهكذا نجد مظاهر الاتصال بين الحركات الكنسية والثقافة الاسلامية، بما لا نطيل فيه أكثر من ذلك، مطمئنين الى أن الأثر العام لهذا الاتصال الذى قدمنا بيانه ليس خافيا، بل هو من البيان بحيث يعد نفس القارىء المنصف للقول بالتأثير الاسلامى الخاص ·

---

(١٠) هذا ما أشرنا اليه فى فصل ٢ فقرة ١١ ، عند الكلام عن صلة البيئة الألمانية خاصة بالثقافة الاسلامية ·

(١١) مور : المصدر السابق ج ٢ ص ٣١٥ ـ ودى بينا هذا فيلسوف مدرسى كان أستاذا للاهوت توفى سنة ١٢٠٦ م · وقد كفرته الكنيسة وبددت جثته ·

الآثار الخاصة

(فى مبادىء الاصلاح البروتستانتى نفسها)

٥ ــ اذا قيل ان خصائص الحضارة الاسلامية ، والدين الاسلامى، قد تسربت خلسة تقريبا الى العالم اللاتينى(١) ·

ثم اذا ما قيل ان الأدلة كافية فى تبيان مجرى النظر الفلسفى والدينى ، أثناء انتقاله من الشرق الى الغرب(٢) ·

اذا ما قيل هذا وذاك من باحثين غربيين ، فانا نقول بعد الذى بيناه : ان مسالك هذا التسرب ، ومظاهر هذا الاتصال قد صارت معروفة جلية ، واننا نتقدم مطمئنين ، لنبين وصولها الى أهم أصول الاصلاح المسيحى الذى خلف المذهب البروتستانتى · واليك البيان :

١ ــ أهم أصول الاصلاح ، والطابع العام له فى جميع الأقاليم ، هو :

رفض السلطة الكنسية ، سواء أكانت ممثلة فى البابا ، أم فى المجامع (٣)

وهذه الفكرة الاصلاحية قد ظهرت منذ الاصلاح الأول ، على يد الفالديين ، فى القرن الثانى عشر ، وقد استرعينا

---

(١) جويدودى روجرو : تاريخ الفلسفة المسيحية ج ٣ ص ٧ ·

(٢) أ · جيوم : تراث الاسلام ج ١ ص ٣١٨ من الترجمة العربية ·

(٣) مور : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٤٥ ·

نظر القارىء ـ فى فصل ٣ فقرة ٣ ـ ليقدر أثر البيئة الماديه والمعنوية التى نشئوا فيها جنوبى فرنسا ، وما يمكن ان تتأثر به من الاسلام •

بل نرى فى عصر أقدم من عصر الفالديين بقرون ، ان « جربرت دوفرن » وهو « البابا سلفستر الثانى » الوثيق الصلة بالثقافة الاسلامية ، والبيئة الاسلامية فى اسبانيا ـ وان أمكن الشك فى رحلته اليها ـ جربرت هذا قد ثار ضد السلطة الكنسية ، وهو يعد أعظم من كتب ضد الأساقفة (٤) •

ثم نجد وراء ذلك أن النقد الاسلامى لهذه السلطة الكنسية قوى شائع ، حتى ليتمثل فى أناشيد العصور الوسطى ، ويتغنى به ، فصلاح الدين الذى يذكر فى الأناشيد الفرنسية واللاتينية لذلك العصر ، نراه فى احدى الروايات يناقش فى الديانات ، وأعظم عيب عاب به النصرانية هو عبادة البابا ، ومسألة الاعتراف (٥) •

وفى الحق انه يلاحظ أن فكرة بيع الغفران ، القائمة على أن كنوز الصالحات تدخر من أعمال الصالحين ، ليباع منها لغيرهم ، تلك الفكرة تناقض أصولا مشهورة ، ونصوصا صريحة فى آيات القرآن ، التى كانت مترجمة الى اللاتينية واليونانية قبل الاصلاح بقرون (٦) ، والتى اتصل بها ولابد

---

(٤) الخورى عيسى أسعد : الطرفة النقية فى تاريخ الكنيسة المسيحية ص ٢٠٩ •

(٥) هنرى دى كاسترو : الاسلام ص ١٤٥ من الترجمة العربية • ولقد كتب طبيب الملك فيليب أوغوست ـ ق ١٢ ، ١٣ ـ هجاء مؤلما للقسيسين سماه « الطب المقدس » • والفالديون الذين أشرنا الى صلتهم بالثقافة والبيئة الاسلامية ، كانوا فى القرن الثانى عشر يسمون البابا « ضد المسيح » ، ويسمون الكنيسة الرومانية « بابل » •

(٦) ولئن كان القرآن يترجم فى تلك العصور للرغبة فى نقضه أو الرد عليه ، فانا لا ننسى أن هذا الاتصال السلبى المعادى ، له أثره فى تطرق الأفكار الى المعاند ، وتاثره بها لما نعرفه من وقع الفكر والآراء على الأعصاب ، وتركها آثارها فيها ، وانفعال النفس بها ، ولو بدأت صلتها بها فى هذه الصورة من المقاومة والمعارضة • • تقدير هذا مما يجده الانسان فى خاصة نفسه ويشهده فى انتقال الآراء ونواميس تفاعلها لو دقق النظر •

فى هاتين اللغتين غير قليلين من مثقفى تلك العصور ، الذين رأينا قوة ما يمنون به من الأسباب الى الثقافة الاسلامية العلمية ، والدينية ٠

ومن الناحية الفلسفية تجد الفكرة التى ترفض السلطة الكنسية فى فلسفات كثيرة ــ من تلك التى كشفنا عن وثيق صلتها بالفلسفة الاسلامية ــ وهنا نريد أن نذكر منها فلسفات متأخرة قاربت عهد انجاز الاصلاح المسيحى ، وأثرت فيه تأثيرا مباشرا ، وتلك هى فلسفة أوكام (Occam) وأتباعه مثل : ج ٠ بيل (G. Biel)، ود ٠ أيلى D. Ailly

= والآيات المناهضة لفكرة بيع التوبة ، وكنوز الصالحين كثيرة فى القرآن منها ما فى (سورة فاطر ٣٥ ــ آية ١١) « ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وان تدع مثقلة الى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى ، انما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ، ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه والى الله المصير » ٠ وما فى سورة المدثر (٧٤) آية ٣١ : « كل نفس بما كسبت رهينة » ٠ وما فى سورة ٢ ــ البقرة ــ آية ٢٨١ : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ٠ وسورة ٣١ لقمان ٠ آية ٣٣ : « يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ٠٠٠ » الى غير ذلك من آيات فى هذا المعنى ، كانت بين يدى الأوربيين العارفين باللاتينية واليونانية ٠ بل قد سمعنا أن فقرات من القرآن كانت تقرأ فى أوربا العربية نفسها ، هذا الى شروح اسلامية لهذه الفكرة عرفنا أنها وصلت الى المسيحيين ، وكانت فى متناولهم ، حينما كانت الكنيسة تسرف فى بيع صكوك الغفران ، واستغلال فكرتها فى ذلك تأييدا لسلطتها ٠

وحين نسوق الشواهد على مبدأ « أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ، ذلك المبدأ الذى لم يجنح القرآن الى غيره ، يحسن أن نقول : ان العهد القديم مثلا لم يؤيد هذا المبدأ ذلك التأييد المطلق اذ ورد فى التوراة المنسوبة الى موسى ، فى سفر التثنية : اصحاح : ٥ آية ٩ : ضد هذا المبدأ حين تقول : « لأنى أنا الرب الهك اله غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء ، وفى الجيل الثالث والرابع من الذين يبغضوننى » ، وفى سفر حزقيال، من أسفار الأنبياء ــ بعد موسى ــ اصحاح : ١٨ ، آية ٢٠ ، تأييد هذا المبدأ « النفس التى تخطىء هى تموت ، الابن لا يحمل من اثم الأب ، والأب لا يحمل من اثم الابن ، بر البار عليه يكون وشر الشرير عليه يكون » ٠

فتأييد الفكرة الأولى دون الثانية يحتاج الى مرجع ، هو الاسلام على ما يبدو لى فى غير تكلف ٠

لقوة اتصال لوثر بتلك الفلسفة ، اذ كان أساتذته فى الجامعة أوكاميين (٧) • وكان لوثر نفسه متأثرا بهــذه الفلسفة ، اذ نراه حينما وقع فى أزمته الروحيــة الدينية ، يقرأ كتب « أوكام » وأتباعه السابقين (٨) •

وأوكام هذا كان ــ كما قلنا سابقا ــ من الفرنشيسكانيين الذين ذكرنا ملاحظة رينان فى آنهم من أقوى انصار الفلسفة الرشــدية بأوربا ، ومن الد اعداء الكنيســة وســلطتها ، و « أوكــام » هــذا هــو الذى قلنا انه احتمى بلويس ملك بافاريا ، مــع مارسيليو دى بادوفا ، وقال له اوكام كلمته المشهورة « دافع عنى بسيفك أدافع عنك بقلمى » (فصل : ٢ ــ فقرة : ١١) •

وتلك الصلة القريبة بالفلسفة الاسلامية تكفى اجمالا ، لكنا نجد فى القســم السياسى من الفلسفة الرشــدية ، ان فيلسوف قرطبة حين يعد حكومة الخلفاء الراشــدين افضــل أنواع الحــكومة ، يعتبر أن شر الظلم ظلم رجــال الدين ، فيفضل من حكومة الخلفاء الراشدين ، تلك الحــكومة التى لا تعتد لنفسها شيئا من السلطان الدينى على الأشــخاص ، ولا تحتفظ بشىء من الامتياز ، أو الوساطة أو الفضل لهؤلاء الخلفــاء ، وينقم على ظلم رجــال الــدين معتبرا ايــاه شر الظلم (٩) •

(٧ ، ٨) مور : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٤٨ ــ دائرة المعارف الايطالية الجديدة مادة لوثر •

(٩) يتصل بهذه الفكرة الاصلاحية فى نبذ السلطة الدينية فكرة المصلحين ، فى عد جميع المسيحيين قسسا ، لهم حق الظهور بين يدى الله ، والصلاة للآخرين ــ مور : تاريخ الأديان ج ٢ ــ ص ٣٥٠ ــ •

وهذه الفكرة فى استخلاص الدين من رجال الكنيسة ورده الى العوام ، وجعله حقا لكل أحد لا حكر فيه لفرد أو طائفة ، هذه الفكرة ليست الا صدى الأثر العام للاتصال بالاسلام شرقا وغربا ، ذلك الأثر الذى وصفناه فى الفصل الثالث • فقرة ٢ ، ٣ ، ثم هى النتيجة المباشرة لاطراح سلطة البابا ، وتسفيه فكرة الوساطة بعامة ــ مما بينا فى هذه الفقرة طريق وصوله عملا وفلسفة الى البيئات المسيحية من المصادر الاسلامية • وكون هذه الفكر مبادىء اسلامية أصيلة ، لا يحتاج الى استدلال ولا استشهاد •

وهكذا نرى ان أنكار السلطة الشخصية الفردية في الدين ، وعدم الاعتراف لأحد بها ، من الخصائص الاسلاميه، التي تسربت الى أوربا على لسان المسلمين ، وفي تعليم دينهم، وعمل خلفائهم الأولين ، بعد ما ترجم من عبارات قرآنهم وفيما انتقل من فلسفتهم ، وفي تحريرها للعقول ، الى آخر ما بيناه في هذه الفقرة ، وكشفنا به عن مسالك ذلك التسرب ، واضحة قوية الاتصال ·

٦ ــ الفكرة الثانية من أصول الاصلاح : ــ **أنه يكفي للنجاة تصحيح العقيدة ، فالنجاة منحة من الله ، يتلقاها كل انسان من ربه رأساً بواسطة العقيدة دون العمل التوسطي للكنيسة في ذلك ، اذ لا وساطة للكنيسة بين الله والناس** (لوثر) **(١٠) ·**

وهذه الفكرة تتضح بأيسر التأمل صلتها بالفلسفة ، وما يتحدث من مذاهبها عن الروح وارتباطها بالملأ الأعلى وهنا يتسع مجال التأثر بالتفسيرات الفلسفية الاسلامية لمثل هذه الأفكار ·

على أنا لا نقف في هذا عند حد الاتصال العام الذي ذكرناه ولا نكتفي بالاستنباط النظري لهذا التأثر ، بل نجد في أقلام المؤلفين الأوربيين ، حلقات تكون سلسلة ذلك الاتصال ، وتكشف عن خطوات الانتقال ·

نراهم يقولون في صراحة ، ان نواة هذه الفكرة الاصلاحية ، انما توجد في تصوف ايكهارت الألماني (١١) ،

---

(١٠) مور · المصدر السابق ج ٢ · ص ٣٤٦ ·

(١١) ايكهارت هذا هو الذي ذكرنا في الفصل الثاني · فقرة ٧ ، تأثره بابن سينا وسنذكر هنا تأثره بالغزالي بشهادة كتاب الأوربيين أنفسهم في تاريخ الأديان وتاريخ الفلسفة · وهو : المعلم ايكهارت · الذي ولد حوالي سنة ١٢٦٠ م ، في ستراسبورج ، وله تلمذة لألبرت الكبير ، كما درس وعلم في باريس ، واشتهر تبشيره في أنحاء ألمانيا ، وتعرف مدرسته الفلسفية باسم « المدرسة الصوفية الألمانية » · وهو احد رهبان الرهبنة الدومينيكانية ·

حين يطبق على اللاهوت (١٢) ، اذ هو يقــول : ان الروح الانسانية نفحة من الأزلى ، وشرارة الهيــة ، فلا ينبغى أن يقوم شيء من الوسائط بين الله والعقل ، بل يتم الاتصــال السريع بينهما مباشرة (١٣) ٠

وايكهارت فى هذا القول : بأن الروح الانسانية قبس الهى ٠٠٠ الخ ، يتصل بعلم النفس الدينى للغزالى (١٤) المتصوف الاسلامى الكبير ، الذى بينا اتصال الغرب به اتصالا مبكرا ، ووصفنا شهرته عند الأوربيين ، ووجود آرائه فى كتب تعد أصولا فى النصرانية ، بل حصنا لها (١٥) ٠

★★★

---

(١٢) فيورينتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٣١٠ ٠

(١٤) ج ٠ مور : تاريخ الأديان ٠ ترجمة ايطالية ج ٢ ص ٣٠٦ ٠

ورأى الغزالى فى هذا مما بينه فى أكثر من موضع من كتبه المتعددة ، والى القارىء طرفا مما ورد فى كتابه « معارج القدس ، فى مدارج معرفة النفس » طبع القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ ــ اذ يقول فى ص ١٠٣ منه ما نصه :

« والا فكل قلب هو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق ، وان كان بينها « تفاوت كثير ، لانه أمر ربانى شريف كما ذكرناه ، فارق سائر جواهر العــالم بهذه الخاصية والشرف واليه الاشارة بقوله تعالى « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الانسان » اشارة الى أن له خاصية تميز بها عن السموات والأرضين والجبال صـــار بها مطيقا لحمل أمانة الله تعالى ، وتلك الأمانة هى المعرفة والتوحيد « والقلب كل آدمى مستعد للأمانة ومطيق لها فى الأصل ٠٠ » وقد قال فى ص ١٦ من هذا الكتاب ، « ونحن حيث أطلقنا فى هذا الكتاب لفظ النفس والروح والقلب والعقل » « فنريد به النفس الانسانية التى هى محل للمعقولات » ٠ وعلى هذا جرى حديثه هنا عن القلب ٠

(١٥) نقرأ فى كتاب تراث الاســـلام ج ١ ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، من الترجمة العربية ما نصه : « ولمباحث هذا المؤلف ــ الغزالى ــ ونتائجه أشباه كثر فى كتاب « الخلاصـــة الفلسفية » الذى ألفه القديس توما ، وهذه حقيقة يصعب أن تجد لها أكثر من تفسير واحد » ، ثم نقرأ فى ص ٣٢٠ منه : وان فى وجود مذاهب اسلامية الأصل فى كتـــاب الخلاصة الفلسفية للاكوينى ــ وهو حصن المسيحية الغربية لدحضا كافيا لاتهـــام العرب بالجدب ، ورميهم بالفقر الى الابتكار » ، وفى ص ٣١٩ قبل ذلك يقول عن العرب ما نصه :

« فقد كان لهم الفضل فى استبقاء نور العلم وضياه ، ومهما قيل فى ضآلة حظهم فى تقدم الفكر الفلسفى البحت ، فان خدمتهم للالهيات كانت على اعظم جانب من الأهمية » وأنت حين تقرأ هذه النصوص تجد قولنا بأخذ افكار اصلاحية عن مصادر اسلامية ، على يد رجال اسلاميين ، ليس بدعا من القول ولا افتياتا ، بل هو حقيقة ، تؤيدها النظرة الأوربية العلمية ، وان كنت لم أجد من ارتقى بها ، حتى انتهى الى القول صراحة بهذه الصلة بين الاسلام واصلاح المسيحية ، فى الأفكار الدينية بخاصة ٠

على أنى من جانب آخر ، ألمح صلة بين هذه الفكرة فى كفاية تصحيح العقيدة وبين فكرة أخرى ، هى مسألة « الايمان والعمل » وضرورة تقدم الايمان ، حتى يوجد العمل الصحيح ... الخ ، لكنى لا أعنى هنا ببيان مناشيء الفكرة كلها ، بل حسبنا أن نكشف جانبا واضحا من صلتها بفكرة اسلامية ، اتضح انتقالها من الشرق الى الغرب ، كما تبين طريق ذلك الانتقال ، ولعل متابعة البحث تهدينى — ان شاء الله — الى استيضاح طريق التأثر بفكرة الايمان والعمل .

٧ — الفكرة الثالثة من الفكر الاصلاحية :

أن كلمة الله هى الضابط الوحيد : فالسلطة انما هى للكتاب المقدس وحده ، وينبذ كل ما هو خارج عنه من آراء المجامع ، والآباء ، والتقاليد (١٦) .

ويلحظ أن هذه الفكرة فى الرجوع الى المصادر الأولى ، والأصول المباشرة للدين ، هى فكرة شديدة الملاءمة لروح التجديد الدينى ، وأليق ما تكون ، بمحاولة اصلاح ما أصله الوحي والتوقيف ، وفيها مظهر للمحافظة يضفى على المجددين نوعا من الثقة ، ويبعد الريبة ، اذ يظهر عملهم فى صورة ابعاد الشوائب ، وتنحية الزوائد التى دخلت على الأصل ، ولهذا نجد فى تاريخ الاصلاح الدينى — مسيحيا أو اسلاميا أو غير ذلك — أن هذا الاتجاه مما يجتمع المصلحون والمجددون على السير فيه .

كما نجد في فرق الأديان الثلاثة — اليهودية ، والمسيحية ، والاسلام — من يلتزم القول بهذا ويناضل عنه (١٧) . فهى خطوة فى التفكير مكررة ، ومظهر من التجديد مشترك .

---

(١٦) ج. مور : المصدر السابق ج ٢ — ص ٣٥٥ .
والدرة النفيسة فى شرح حال الكنيسة ص ٣٥٢ .

(١٧) من هذا فى اليهودية القراءون ، وفى المسيحية الفالديون ، والبروتستانت وفى الاسلام فرق متعددة فى عصور مختلفة وبلاد مختلفة .

على أن هذا لا يكفى فى تعليل ظهور الفكرة فى بيئة بعينها ، أو دين بعينه فى زمن بعينه ، بل لانزال نحتاج الى معرفة عوامل التوجيه اليها ، وأسباب ظهورها المباشرة ٠

وهذه الفكرة فى التعويل على الانجيل ونبذ ما عداه ، فكرة قديمة ، قال بها الفالديون فى القرن الثانى عشر ، وقد قدمنا ــ فصل ٣ ــ ، فقرة ٤ ــ ما لبيئة هذه الفرقة من صلة عملية : وصلة عقلية بالاسلام ، مع مجاورتها القريبة لاسبانيا الاسلامية ، اذ ظهرت فى جنوبى فرنسا كما سبق القول ٠

★★★

على أنا نرى من حق التاريخ ، أن نشير فى بيان مسارب هذه الفكرة الى المسيحيين الغربيين لما مهدنا ببيانه ــ فصل ٢ : فقرة ١٠ ــ من أمر الحركة الظاهرية فى الاندلس، وتمثيل ابن حزم لها هناك ، وعمله على أخذ العقائد من الكتاب وصحيح السنة فقط ٠ كما نشير مع ذلك الى حركة تشريعية تحررية ، قاومت التقليد ، واعتمدت على السلطة التنفيذية للحكومة الاسلامية اعتمادا لا نكاد نجد له نظيرا فى تاريخ التشريع الاسلامى ، تلك هى الحركة التى قامت بعد ابن حزم ، فى عهد المنصور الموحدى ، الذى كان شديد الاعجاب به (١٨) ٠ واتخذت شكلا رسميا فى عهد المنصور أبى يوسف يعقوب ابن أبى يعقوب ، الذى حكم المغرب والأندلس ما بين سنتى ٥٥٤ هـ ــ ١١٥٩ م ، ٥٩٥ هـ ــ ١١٩٩ م ، فقد أصدر أمرا برفض فروع الفقه ، وأن الفقهاء لا يفتون الا بالكتاب والسنة النبوية ، ولا يقلدون أحدا من الأئمة المجتهدين المتقدمين ، بل تكون أحكامهم بما يؤدى اليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب ، والحديث والاجماع ، والقياس (١٩) ٠

---

(١٨) ينقلون أنه وقف على قبره وقال : كل العلماء عيال على ابن حزم ، وعلاقة ابن حزم وحريته ، بتلك الحركة الموحدية فى مقاومة التقليد تبدو ظاهرة واضحة ٠

(١٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٣٢ ٠ ط ٠ بولاق ٠

وتشرح لنا فكرة المنصور في الرجوع الى الأصل الاول ، محاورة بينه وبين الفقيه المالكى ، الشيخ أبى بكر بن الجد ، الأشـبيلى زعيم وقته « ٤٩٦ هـ ـ ٥٨٦ هـ » ، يقـول فى روايتها : لمـا دخلت على أمير المؤمنين ، أبى يعقوب ، أول دخلة دخلتها عليه ، وجدت بين يديه ، كتاب ابن يونس ، فقال لى : يا أبا بكر ، انا انظر فى هذه الآراء المتشعبه ، التى آحدثت فى دين الله ، أرأيت يا أبا بكر ، المسألة فيها أربعة أقوال ، او خمسة أقوال ، أو أكثر من هذا ، فأى هذه الآقـوال هو الحق ؟ وأيها يجب أن يأخـذ به المقلد ؟ ·· فافتتحت ابين له ما أشكل عليه من ذلك ، فقال لى وقطـع كلامى : يا آبا بكر ، ليس الا هذا ، وأشار الى المصحف ، او هذا ، وأشار الى كتاب سنن أبى داود وكان عن يمينه ، أو السيف (٢٠) ·

وقد حكم القوة فعـلا ، اذ تقـدم الى النـاس فى ترك الاشتغال بعلم الرأى ، والخوض فى شيء منه ، على نحـو ما سبقت الاشـارة اليـه ، وتوعد عـلى ذلك بالعقـوبة الشديدة (٢١) ·

والفكرة فيما يروى (٢٢) قد شغلت أباه من قبله : أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وشغلت جده عبد المؤمن بن على ، ولكن ظهر فى أيامه ما خفى فى أيام أبيه وجده ، وآظهر هو من الجد فيها ما لم يظهراه ·

ويقال ان مقصدهم فى الجملة كان محو مذهب مالك ، وازالته من المغرب مرة واحدة ، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث (٢٣) ·

---

(٢٠) أبو محمد عبد الواحد بن على التميمى المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب : ص ١٨٥ ط مصر سنة ١٣٢٤ هـ ·

(٢١) المصدر السابق ص ١٨٤ ·

(٢٢) المصدر السابق ص ١٨٥ س ١ ، ١٠ ·

(٢٣) المصدر السابق ص ١٨٤ ، ١٨٥ ·

والبحث في منشأ هذه الفكرة ومقصدها مما يجدر تتبعه بدقة في تاريخ التشريع الاسلامي عامة ، وتاريخ الحياة العقلية في الأندلس بخاصة ، وانما نكتفي هنا بالاشارة الى موضع الشاهد على ما قصدنا اليه من قوة فكرة الرجوع الى الأصل في البيئة الاسلامية ، خلال القرن الثاني عشر الميلادي ، واتخاذها شكلا رسميا بتدخل الحكومة ٠

وانك لترى حتى في المظاهر العملية لنصرة هذه الفكرة، تشابها بين الغرب الاسلامي، والغرب المسيحي ، يلفت النظر ويثير الانتباه ، بأبو يوسف المنصور يأمر باحراق كتب المذهب ، بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقرآن ، فينفذ ذلك ، وتحرق منها جملة في سائر البلاد ، كمدونة سحنون ، وكتاب ابن يونس ، ونوادر أبي زيد ، ومختصره ، وكتاب التهذيب للبرادعي ، وواضحة ابن حبيب ، وما جانس هذه الكتب ، ونحا نحوها (٢٤) ٠ ويحدث المراكشي المؤرخ ، الذى كان شاهد عيان لهذه الحركة ، أنه شهد وهو بفاس أحمال الكتب يؤتى بها فتوضع ، ويطلق فيها النار ٠

وهذه النار قد التهمت في الغرب كثيرا من الاراء والمفكرين كذلك ، سواء على يد الرجال المقاومين للاصلاح ، أو على يد الداعين اليه كما أشرنا الى بعض ذلك ، في تعليقات من هذا البحث ٠

والفكرة الاسلامية في الرجوع الى الأصل الأول قد راجت ، حتى وصلت آثارها الى المشرق، وقال ابن خلكان(٢٥) بعد ما روى الخبر السابق عنها ما نصه : ـ

« ولقد أدركنا جماعة من مشايخ المغرب وصلوا الينا بالبلاد ، وهم على ذلك الطريق ، مثل أبي الخطاب بن دحية ،

---

(٢٤) المصدر السابق ص ١٨٤ ٠

(٢٥) ابن خلكان : ج ٢ ص ٥٣٣ ط بولاق ٠

وأخيه أبي عمرو ، ومحيي الدين العـربي ، نزيل دمشـق وغيرهم » .

وأثر البيئة الأندلسية في التفكير الديني المسيحي وغيره مما تكرر القول فيه ، وسبقت الاشارة الى اطلاع مثل بطرس الفينرابلي على النظريات الدينية والاسلامية فيها ، والى انشاء مدارس التبشير في اسبانيا نفسها ، والى انشاء الجامعات العلميـة المسيحية فيهـا عـلى يد رجال من علماء المسـلمين أنفسهم (٢٦) .

فالتأثر بهذه الفكرة الرسمية الرائجة ليس فيه شيء من البعـد ، وهي فـكرة واضـحة الصلة والارتباط بالفـكرة الاصـلاحية ، حين نرى الاخذ بالانجيل ، والوقوف عنـده فقط ، واطراح ما وراء ذلك من آراء .

٨ ــ ويتصـل بهـذه الفـكرة في الاعتماد على الكتاب المقدس ، فكرة الاصلاح المسيحي في تفسير الكتاب ، ومن له حق التفسير . وقضية التفسير هي هنا صلب المسألة (٢٧) .

ورأى الاصلاح فيها أن لكل مسيحي الحق في التفسير

(Lutti Cristisni hanno lo stesso d'interpretarle - la parola di Dio)

ولعل مسألة التفسير أو التأويل هذه ، ليست قديمـه قدم غيرها من موضوعات الاصلاح، التي كانت سبب اصطدام مع الكنيسة ، فلم أرهـا في مسائل الفالديين الذين بكروا بالدعـوة الى الاصلاح ، بل نرى الصيغة العمليـة أغلب في المسائل المبكرة . أما هذا التفسير فخطوة متأخرة ، تلت دمل الفلسفة المدرسية ــ المتصلة والمتأثرة بالبيئة الاسلامية ــ مع

---

(٢٦) اقرأ قول : أ . جيوم ، في تراث الاسلام ج ١ ص ٢٣٢ من الترجمة العربية ، « وكانت أول جامعة عربية في أوربا مدينة بوجودها للعلوم الاسلامية ، ذلك أن الفونس الحكيم (١٢٥٢ ــ ١٢٨١) قد ساعد رجلا ، اسمه أبو بكر الرقوطي ، وكان أحد أعلام العلم في عصره ، فبنى له مدرسة ، قام فيها بتدريس العلوم في شتى صورها للمسيحيين ، واليهود ، والمسلمين » . ولعلنا نستطيع أن نعرف عن الرقوطي هذا أوضح وأكثر مما يقولون عنه في مثل هذه الفقرة القصيرة .

(٢٧) مور : المصدر السابق . ج ٢ . ص ٣٤٥ .

الدين حين تلاقيا ، فأثيرت مسألة التوفيق بين الدين والفلسفة ، وأخذت حيزها الواسع فى تلك العصور الوسطى .

واذا ما تحدثنا عن التوفيق بين الدين والفلسفة ، وما تلاه من تفسير النصوص المقدسة ، وفيما نرى الأثر الاسلامى فى هذه المسائل ، فذكرنا مثل جهاد ابن رشد فى هذا التفسير ، وافراده اياه بالبحث فى كتاب « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » ، مع تعرضه له فى غير ذلك من كتاباته سعيا الى رفع ما يظهر من مناقضة بين العلم والدين ، حينما تكون ظواهر عبارات الوحى مشيرة لشىء من هذا .

والرغبة فى التوفيق ، والعمل عليه ، قد اخذت دورا من حياة الفلسفة المدرسية كما أشرنا الى ذلك ــ فصل ٢ فقرة ٧ وفصل ٣ فقرة ٢ مع هامش ١ ــ ، والعلاقة بين كبار العاملين على هذا التوفيق فى الغرب وبين المصادر الاسلامية ، مما يتبين كذلك جليا فيما سبق ، وتجد منه على سبيل المثال ما يذكره كتاب الغربيين عن العلاقة بين القديس توما وغيره من مفكرى الغرب ، وبين ابن رشد ، وغيره من مفكرى الاسلام ، واستفادة هؤلاء من تلك المنابع الاسلامية (٢٨) .

ولسنا بحيث نقصد هنا الى تأريخ حركة التوفيق فى الغرب ، وانما نريد أن نقول : ان التفسيرات الرافعة للتناقض الظاهر ، كان يستطيعها أمثال ابن رشد بأنفسهم دون صعوبة كبيرة ، ولم يكونوا يجدون من ينكر عليهم هذا الحق فى التفسير ــ وان خولفوا أو أنكرت عليهم آراء بعينها

---

(٢٨) اقرأ فى هذا فوق ما تكرر ذكره من مصادر تاريخ الفلسفة والأديان ما ورد فى الجزء الأول من تراث الاسلام ــ ترجمة عربية ــ صفحات ٣١٠ و ٣١١ و ٣١٧ وغيرها) .

« وفى خلال هذا يقرر الكاتب أن ابن رشد بهذا الجهد فى التوفيق بين الدين والفلسفة ، قد ترك للعلم المسيحى اكثر من التعليق على ارسطو .

فى هذا التفسير ـ على حين كانت البيئة المسيحية التى اقتفت أثر المسلمين فى هـذا ، تجد الحائل القـوى دون المضي فى سبيلها ، لأن الكنيسة وحدها ، هى التى كانت تتولى الفصل فى تفسير نصوص الانجيل (٢٩) •

على أن هذا الحق فى التفسير كما أشرنا قريبا ، يتصل بفكرة الاعتماد على الكتاب المقدس وحده وطرح ما عداه ، ثم انه قدر مكمل لفكرة رفض السـلطة الكنسية ، ورفض وساطتها فى الغفران ، اذ لا جدوى فى ذلك كله حين يبقى حق تفسير الكتاب المقدس للكنيسة وحدها ، تستخرج من تفسيراتها الخاصة للكتاب ما تستبقى به هـذه السلطات أو أكثر منها •

وليس من القليل الاثر فى هـذا ما عرفه الغربيون ـ المتصلون بالتفكير الدينى والعلمى فى الاسلام ـ من نظـام التفسـير عنـد عامة المسلمين لكتابهم المقـدس ، وتحكيم الأصول الأدبية والعقلية فيه ، دون سلطة لأحـد بعينه فى ذلك ، أو رجوع لسلطة معينة يتلقى منها التفسير •

٩ ـ المسألة الخامسة مما تأثر فيه الاصلاح بالاسلام ، مسألة سر الشـكر أو « الافخارستيا » eucarestio (٣٠) **انكار الاستحالة الحقيقية ، مع الاعتقاد بوجـود المسيح فى القربان الى جانب الخبز والنبيذ ، دون أن تكون استحاله حقـة •**

---

(٢٩) المصدر السابق ص ٣١٣ •

(٣٠) هى مناولة كنسية تمثل العشاء الأخير ، الذى تناوله المسيح مع تلامذته ، وتختار القرابين فيها من أفضل المقدم من خبز وخمر ، يعتبر الخبز جسد المسيح ، ويعتبر الخمر دمه ، ولها رسوم اختلفت باختلاف أدوار حياة المسيحية •

وكان من أسباب انفصال الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية وحرمان كل واحدة منهما لصاحبتها ، استعمال الفطير فى هذه المناولة بدل الخبز •

ويلاحظ أن الخلاف حول هذه المناولة ثار فى الغرب منذ انتقلت اليه عدوى البحث العقلى الدينى من الشرق ، فمنذ القرن العاشر بحثوا فى كيفية وجود جسد المسيح ودمه ، وأنكرت استحالة الخبز والخمر الى جسد ودم ، وقيل انهما يبقيان خبزا وخمرا بسيطين وما هما الا رسم لجسد المسيح ودمه فقط •

وهـذه المسـألة قديمة كذلك • قـد نظر فيها بطرس اللومباردى Pietro Lampadı منذ القرن الثاني عشر ، وقال بها فعلا « أوكام » و « أيلى » • ومن هؤلاء أخذها ، لوثر ، الذى وصفنا صلته بهم ــ فصل ٣ فقرة ٥ ــ فاذا وقدر أن الفكرة فلسفية الأصل ، نشأت في تلك البيئة المدرسـية • التى عانت التوفيق بين الدين والفلسفة ، وقال بها ــ كما رأيت ــ أولئك الفرنشيسكانيون ، الذين عرفـوا بنصرة الفلسفة الاسلامية ومن كل هذا يظهر قرب هذه البيئة الى التفكير الاسلامي وتأثرها •

فلنذكر في هذا المقام أن الفلسفة والدين فى الاسلام أو الفلسفتين ، العامة والكلامية ، قد تعارضت نظرتاهما في مسألة الأسباب والمسببات ، فكان طريق التوفيق بينهما فى ذلك ، طريقا ينتهى الى مثل هذا التوفيق ، بين النظرة المسيحية الدينية ، والفلسفة المسيحية المتدينة ، فى مسألة الشكر التى نتحدث عنها •

فى هذه المسألة المشابهة للمسألة المسيحية ، أى مسألة الأسباب والمسببات بين الفلاسفة والمتكلمين المسلمين ، قال المتفلسفة بالسببية المحضة ، وأنكرها المتدينون ، ولم يروا لهـا تأثيرا ، فرأى المتكلمون أن ليست الأسـباب الا أسبابا عادية ، ووجـود المسـببات عنـدها انما هـــو بخلق الله لا بها (٣١) •

= بل ثار الخلاف فى القرن الثانى عشر حول أن جسد المسيح ودمه المتناولين : هل هما قابلان للفساد كما كان جسد المسيح قبل الصلب ، أو هما غير قابلين للفساد كما كان جسده بعد الصلب ، وهو خلاف يبدو غريبا •

ونما الخلاف بشأن هذه المناولة منذ ظهرت طلائع الاصلاح المسيحى فقويت فكرة انكار استحالة الخبز والخمر الى جسد ودم ، حتى كان رأى لوثر هو ذلك التوفيق الفلسفى الذى شرحناه ، وان المسيح يوجد الى جانبهما دون أن يتحولا الى جسده ودمه •

(٣١) المسألة معروفة فى البيئات الكلامية ، لكنى مع ذلك أضع بين يدى القارىء طرفا مما ورد عنها فى كتاب التهافت الذى كان معروفا رائجا عند الأوربيين فى القرون الوسطى ، فلقد عقد الامام الغزالى فصلا فيه ، عنوانه « مسألة الاقتران بين ما يعتقد فى العادة سببا وما يعتقد مسببا ليس ضروريا عندنا ••• » وفيه يقول : « المقام الأول : أن يدعى الخصم =

وقد كانت هذه المسألة مثار المشادة القوية بين ابن رشد والمتكلمين في رده على تهافت الغزالي ، وكلاهما مثل جانبا من جانبي التفكير ، ونحن نعرف أن الغزالي قد كانت آثاره بين يدي الغربيين في سنين مبكرة من القرن الثاني عشر الميلادي، ونعرف أن تهافته قد ترجم الى اللاتينية ، واقتبست منه أفكار بذاتها في مؤلفات مسيحية ، على ما سبق بيانه ، كما نعرف أن الفلسفة الرشدية قد سادت وتحكمت في اوربا عهودا طويلة ، فالجانبان من الرأي وحججهما • قد كانا في أيدي فلاسفة الغربيين بلا مراء ، دهرا طويلا •

واذا ما قدرنا كل هذا فلا يبعد في أن نقول : ان هذا الحل الفلسفي بعينه في مسألة الاستحالة ، قد جاء محاكاة للحل في مسألة الأسباب • وهي فلسفية أيضا وأن نجد القرب الشديد بين هذه الفكرة الفلسفية في مسألة الاستحالة الدينية للخبز والنبيذ الى جسد المسيح ودمه ، والفكرة الكلامية في مسالة الأسباب الفلسفية ، نعم نجد قربا يبرر الاطمئنان الى استنتاج أن الفكرة في وجود المسيح عند مادة سر الشكر ، لا أن المادة تستحيل فعلا الى جسده ودمه ، قد تأثرت بفكرة أن المسببات يخلقها الله عند وجود أسبابها ، لا أنها توجد بها نفسها • الفكرة هي الفكرة ، والنزاع يشبه النزاع ، والمتنازعان هما العقيدة والفلسفة • والتوفيق الاسلامي ديني يريد ارضاء الفلسفة ، والتوفيق المسيحي فلسفي يريد

= أن فاعل الاحتراق هو النار فقط ، وهو فاعل بالطبع لا بالاختيار ، فلا يمكنه الكف عما هو طبعه بعد ملاقاته لمحل قابل له ، وهذا مما ننكره ، بل نقول : فاعل الاحتراق بخلق السواد في القطن ، والتفرق في أجزائه ، وجعله حراقا ـ كغراب ما يقع فيه النار عند القدح ـ ورمادا هو الله تعالى ، اما بواسطة الملائكة أو بغير واسطة ، فأما النار فهي جماد لا فعل لها ، فما الدليل على أنها الفاعل ، وليس لهم دليل الا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقاة النار ، والمشاهدة تدل على الحصول عنده ، ولا تدل على الحصول به • الى أن يقول بعد ذلك « فقد تبين أن الوجود عند الشيء لا يدل على انه موجود به » أ هـ • من ص ٦٥ ـ ٦٦ • تهافت الفلاسفة ، طبع القاهرة سنة ١٣٢١ •

وقد ناقش ابن رشد هذا الفصل في ص ١٢٢ وما بعدها من تهافت التهافت ـ طبع القاهرة مع تهافت الغزالي ـ

أن يفهم الدين ، او يرضيه ، والتوفيق الغربي متاخر عن التوفيق الشرقي بوقت طويل ، وقد عرف اللاحق السابق

١٠ ــ المسألة السادسة من نواحي التأثر : مسألة قديمة، ظهر بها مذهب مسيحى قديم ، منذ عصور مبكرة ، واقرها الاصلاح وسار عليها ، **تلك هى مسألة الصور** ، اذ قال المذهب الايكونوكلاستى Iconoclasti ، فى القرن الثامن الميلادى ، **بابطال عبادة الصور ، ورفعها من المعابد ، بل وصل الى تدنيسها وتحطيمها** ، ثم اتفق البروتستانتيون جميعا على ابطال عبادة الصور •

وهذا المذهب قديم الصلة بالاسلام فى الشرق ــ ولو ان فكرته نفسها أقدم ظهورا من الاسلام ــ ، والعلاقة بين ليون الثالث الأيساورى مكسر الأصنام ، الذى أقلق سلام الكنيسه، وأظهر الفكرة فى عنف ، وبين الاسلام والمسلمين علاقة وثيقة (٣٢) • وفى تعليل عمله ضد الصور ، يقول كاتب كنسى ــ هو الخورى عيسى أسعد صاحب كتاب الطرفة النقية ــ : ان ليون فعل ذلك لأسباب سياسية ، اذ رغب فى التقرب الى المسلمين بذلك ، أو فعل ذلك تقليدا لحركة من هذا النوع قام بها فى ذلك العهد المسلمون فى ديارهم •

ولا يعنينا كثيرا أن نعمل لترجيح أحد الاحتمالين فى هذا المكان ، فكلاهما كاف لايضاح أن أقوى حركة عرفها **تاريخ المسيحية ضد عبادة الصور كان لها بالاسلام مثل ذلك الاتصال فى نشأة القائم بها ــ ليون الثالث الايساورى** leone III l'isaurier أمبراطور القسطنطينية ــ وفى تفكيره •

---

(٣٢) يتحدث ابن الأثير فى الكامل ــ ج ٥ ص ١٠ وما بعدها ط القاهرة ــ بأن ليون هذا جاسوس للعرب ، وانه جاء سليمان بن عبد الملك فضمن له فتح الروم ، فكانت غزوة مسلمة للقسطنطينية التى يفصل ابن الأثير خبرها فى هذا الموضع ويبين كيف انتهى الامر بتمليك الروم ليون هذا عليهم اذا صرف المسلمين ، وانه احتال لذلك ، وبعد هذا ببضع سنوات قام بحركته فى تحطيم التماثيل وابطال عبادتها ، تلك الحركة التى تكاد تكون أقوى ما عرف في تاريخ مقاومة التماثيل بالكنيسة •

والحركة الاسلامية التي سمعت خبرها في تحطيم التماثيل ، هي التي قام بها الخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك سنة ١٠٢ هـ ٧٢٠ م ، ـ وكانت حركة ليون المسيحية سنة ٧٢٦م ـ ، اذ كتب يزيد الى حنظلة بن صفوان والى مصر ، أن يكسر الأصنام والتماثيل فكسرت كلها ، ومحيت من ديار مصر وغيرها في أيامه (٣٣) ٠

ويذكر صاحب الطرفة النقية الآنف ذكره في سبب قيام يزيد بن عبد الملك بهذه الحركة ، أن حاخاما يهوديا اغراه باصدار أمر يحظر فيه التصوير لكي لا يكون للمسيحيين ميزة على كنيس اليهود ، ففعل ، لكن امر يزيد على ما يرويه صاحب النجوم الزاهرة لا ذكر فيه للتصوير أو الصور ، والخليفة يزيد في غنى عن أن يحرض على هذا تحريضا سواء بشأن الصور أو التماثيل ، والأمر في الأخيرة أشد ، نعم لابد أن يكون هناك سبب مباشر ، دفع الى اصدار هذا الأمر الخاص بكسر التماثيل ، ولكن ليس يجب أن يكون المحرض من غير البيئة الاسلامية ، الناقمة على ذلك دائما ٠

وعلى كل فالمؤرخ لا يغفل في سهولة صلة ما بين عمل يزيد ، وعمل ليون في وقت متقارب ، لا يزيد الفرق فيه عن بضع سنوات ، بعد ما عرفت صلة ليون القوية بالمسلمين، ولحظها كاتب كنسي ٠

تلك مسائل مما تجلت فيه الصلة بين الاسلام عقيدة وعملا وتفكيرا ، وبين البيئات الاصلاحية المسيحية في أوربا ، وأكثرها مما تبين فيه طريق الاتصال بعبارات الكتاب الغربيين أنفسهم ٠

وفي هذا ما يكفي للتمهيد للفكرة ، ولفت نظر علماء تاريخ الأديان الى استكمالها ، بالدرس والتنقيب في حياة

---

(٣٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٥٠ طبع دار الكتب الملكية ٠

الدينين • وما يصل طماعيتي في متابعة هذه الدراسة واستيفائها •

واذا كان الأستاذ الفريد جيوم يقول بعد ما تحدث عن تراث الاسلام في الفلسفة والالهيات ما نصه : ـ **«وسوف نرى عندما تخرج الى النور الكنوز المودعة في دور الكتب الأوربية ، أن تأثير العرب الخالد في حضارة العصور الوسطى ، كان أجل شأنا وأكبر خطرا مما عرفناه حتى الآن » •**

فاني لأقول : **سوف نرى عندما تتجه الرغبة العلمية الى درس هذه الصلة بين الدينين في نزاهة واخلاص ، أن أثر الاسلام في حياة أوربا الدينية ، لا يقل أبدا عن أثره في حياتها الفلسفية ، والعلمية ، والفنية •**

خاتمـــة

كان لهذا الموضوع عنـد الغربيين سـواء في مصر او أوربا وقع لافت ، حتى لقـد تقدم الينـا في حفله افتتـاح المؤتمر ، بمدينة بروكسل أعضاء الوفد الايطالي ، يسألون عن الوفـد المصرى ، ومن سيتكلم في موضوع « الاسـلام والاصلاح البروتستانتى » مظهرين اهتمامهم بالموضوع ٠

ولقد تلطف الاستاذ هـ ٠ ماسى H. Massi الأستاذ بجامعه باريس ، والذى اختير لرياسة القسم الاسلامى بالمؤتمر ، فسأل بعد القاء خلاصة الموضوع ، عن طبعه ، ومتى وأين يكون ؟ وطلب أن أرسل اليه نسخة عربية عند ما يتم ذلك ٠ اذ هو لا يعرف الايطالية التى كتب بها البحث ، على ما أظن٠

ولعل فى هذا الاهتمام بالموضوع ما يرجع الى شيء من الدهش لجدته ، أو ما يرجع الى تشوف العصبية الدينية ، لما يمكن أن يقال فيه ٠

فأما الجدة فنعم ٠ وأما العصبية فأحسب أن الله قد وقى من خطرها على الحق ٠ ويهمنى أن أؤكد فى الختام ما قلته فى البدء من : أن البحث العلمى النزيه ، هو الطلبة الأولى والأخيرة فيما كتبت ، وأرجو أن يشعر القارىء معى بهذا ، وأن أكون قد وفقت الى التزام ذلك دائما ٠

★★★

وأرى من الخير ، أن أشير الى حادث يسير الخطر ، كبير الأثر ، يمس هذا الموضوع فى مصر ، ويتصل بفهمنا للأمانة العلمية ، وتقديرنا لها ٠ ذلك أن الحديث عن موضوع هذا

البحث ، واختياره ليقدم الى المؤتمر ، كان قد تناثر بمصر منذ وجهت الدعوة اليها ، حوالى نهاية ١٣٥٣ هـ ــ ابريل سنة ١٩٣٥م وذكرت اذ ذاك أن هذا الموضوع ، يشغل فكرى منذ نحو عشر سنوات ، أيام كنت فى روما ، ورأيت نسخة من ترجمة القران الكريم ظهرت حوالى عهد الاصلاح الدينى ، وقيدت ذلك فى مذكرات علمية محفوظة •

فى تلك الأثناء ــ أواخر سنة ١٣٥٢ هـ ــ كانت مطبعه المنار ، تخرج طبعة سابعة من رسالة التوحيد ، للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وقد اعتاد الناشر ، وضع عناوين فرعية من عنده فى رءوس الصفحات ، تبين محتويات الفصول ، كما صرح بذلك فى صفحة ١٦٦ من الطبعه السابعة نفسها ، وكما رأى من حقه أن يعلق على الرسالة فى هامش الصفحات ، تعليقات من عنده •

ففى الطبعات المتقدمه على هذه الطبعة ، كان يضع بين عناوينه الفرعية للفصل الخاص بانتشار الاسلام فى ــــ الرسالة ، عنوانين : هما « الحروب الصليبيه ، واستفادة أوربا من المسلمين » و « استفادة أوربا من الاسلام » • لكنه فى الطبعة السابعة التى آرخها بعام ١٣٥٣ هـ ، استغنى عن هذين العنوانين ، بعنوان جديد نصـه : اقتباس الاصلاح الدينى فى أوربة من الاسلام ــ ص ١٩٤ ط سابعة ــ وورد فى الرسالة تحت هذا العنوان ما عبارته « ولم يكن بعد ذلك الا قليلا من الزمن ، حتى ظهرت طائفـة منهـم تدعـو الى الاصلاح والرجوع بالدين الى سذاجته ، وجاءت فى اصلاحها بما لا يبعد عن الاسـلام الا قليـلا ، بل ذهب بعض طوائف الاصلاح فى العقائد (١) الى ما يتفق مع عقيدة الاسـلام ، الا فى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن ما هم عليه انما هو دينه يختلف عنه اسما ، ولا يختلف معنى الا فى صورة العبادة لا غير » • ا هـ •

---

(١) هنا علق الناشر فى الهامش بما نصه « هم طائفة الموحدين وأكثرهم من الانكليز والأميركان » ، وهذا التعليق أيضا جديد فى هذه الطبعة السابعة لا يوجد فى الطبعات الأخرى •

وما فى هذه الفقرة من أن الاصلاح لا يبعد عن الاسلام الا قليلا ، او ان العمائد صارت به تسى مع عقيدة الاسلام ٠٠ الخ ، لا ذكر فيه لشيء من الاقتباس او الناشر ، ولا يكفى لوضع هذا العنوان الصريح ، عن اقتباس الاصلاح الديني في أوربا من الاسـلام ، ولو كان مثـل هـذا المعنى الذى فى العنوان ، قد اتجه اليه الأستاذ الامام ، وهو يكتب رسـالة التوحيد ، لما كفته فيه ، تلك العبارات العامة المبهمة !!

ولقـد كنت أبحث ، متمنيا أن أجـد من صرح بهـذا الاقتباس في الشرق أو فى الغرب لأشعر بنصرته للفكر ، ثم أمضى فى بيانها وتأييدها ، فلم تصل يدى الى شيء من ذلك . ولو أن الأستاذ الامام ، قد أشار الى هذا الاقتباس لكان ظهيرا لى آنس به ، لأتقدم الى بيان الفكرة ، وتأييدها ، على نحـو ما صنعت ، في كشف مسالك الاتصال والانتقال بين الدينين ، وما كان لذلك من أثر فى مبادىء الاصلاح المسيحى ، وآراء أصحابه ٠٠٠ لكن كلام الأستاذ الامام لا يفيد شيئا من ذلك فى قرب ٠

★★★

فناشر المنار قد أضاف الى رسالة التوحيد ، عنوانا جديدا ـ ص ١٩٤ ط سابعة ـ ليس له ظل من الوجود فى الطبعات السابقة ، كما زاد هامشا جديدا فى الصفحة نفسها ، ليس له وجود في الطبعات السابقة ٠ ولا رعاية فى هذا كله لشيء من الأمانة العلمية ، وفيه ما فيه ، من التعمية على التاريخ ، ولا مبرر لذلك كله ولا مقتضى له ٠ وكان خيرا من ذلك لو أراد فائدة قرائه ، أن يشير فى الهامش ، الى ظهور هـذه الفكرة ، وتكميلها البحث ، واثباتهـا اسـتفادة أوربا من الاسلام ، فى آراء الاصلاح نفسها ٠

ولو مضيت في الاستنتاج الذى تبرره الشواهد السابقة ، لاتهمت تاريخ هذه الطبعة للرسالة بعام ١٣٥٣ ، وانه لون من التعمية أيضا ٠

لكنى أدع هـذا كلـه ، مكتفيا بأن أتمنى للباحث ، والناشر ، والقارىء في الشرق أن يوقى مثل هذا التساهل ، وعدم التقدير للأمـانة العلمية ، ولا سـيما أبنـاء اولئك السالفين ، الذين عرفنا من دقتهم فى الرواية ما عرفنا ، ورأيناهم يتحرجون فى ذلك تحرجا شديدا ، ويشيرون الى أيسر تغيير فى روايتهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ٠

على هذه الأمانة لقيت قارئى منذ بدآت البحث ، وعلى هذه الأمانة أنتهى به الى ما انتهيت اليه من نتائجه ٠ والسلام على من اتبع الهدى ؟

الفهـرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٦٧١/١٩٩٣

ISBN — 977 — 01 — 3233 — 0

بالمنهجية الرصينة المعهودة من الشيخ أمين الخولي نبحث في عمله هذا ـ الذي ألقاه في مؤتمر تاريخ الأديان ببروكسل عام ١٩٣٥ ـ الاتصال المادي بين الإسلام والمسيحية في أوروبا، ثم الاتصال المعنوي بين الإسلام والمسيحية في أوروبا، ثم آثار ذلك الاتصال في أفكار الإصلاح المسيحي وآراء دعاته خلال تلك الأزمنة الطويلة. وهو موضوع ذو أهمية قصوى نظرا لإشكالية الحوار / الصراع بين الحضارات التي تشغلنا الآن كثيرا

٢٢٠ قرشا   مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب